من مؤلف كتاب جزائري في الأندلس

سفيان مقنين

عطلة تونسية

الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»

العنوان: عطلة تونسية
المؤلف: سفيان مقنين
تاريخ الإصدار: جويلية 2020

جميع الحقوق محفوظة

الجزائر تقرأ

8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى،
الجزائر العاصمة/ الجزائر
إيميل: NASHR.DZREADS@GMAIL.COM
فايسبوك / تويتر / سنابشات / يوتيوب/ تلغرام @dzreads
إنستغرام @dz_reads

للمهتمين بالحصول على كتبنا، يرجى طلبها من متجرنا
الإلكتروني، توصيل لغاية باب البيت

DZREADS.COM

يمكن الحصول على هذا
الكتاب وغيره من كتب
الجزائر تقرأ الأخرى
وماتشتهيه من كتب عبر
متجرنا الإلكتروني مع توصيل
لباب البيت

DZREADS.COM

«الجزائر تقرأ»

مقدمة الكاتب

الجزائريون كلهم يحبون السفر، لكن القليلون منهم من يعتبر ذلك واجبا وضرورة سنوية، وحين يصولون ويجولون في مناطق بلدهم أو البلدان المجاورة، أو البلدان التي تتيح لنا ميزانيتنا وجنسيتنا زيارتها رغم بعدها، فإنهم يلتقطون ذكريات كثيرة مشفوعة بصور وفيديوهات، لكنهم لا يتكلفون عناء الجلوس للكتابة والتدوين عن أي مغامرة قاموا بها في تلك الربوع.

أعرف أن الأمور تغيرت الآن، وبرزت صفحات ومواقع وفضاءات أتاحت لنا الاطلاع على تجارب بعضنا البعض، لكن الأمر لم يكن كذلك قبل أربع سنوات من الآن، حين قررت أن أذهب في رحلة إلى الشقيقة تونس أو عنوان العطلة الصيفية لقطاع

عريض من العائلات الجزائرية في العقدين الأخيرين.

مجرد الخروج من حدود البلد، أو حتى من حدود المدينة التي أسكن فيها، أيا كانت المدن (وقد تنقلت في حياتي عبر ست مدن جزائرية) هو بالنسبة لي حكاية جديرة بالتدوين، وميدان أضع فيه قلمي تحت الاختبار والتمرين، ومحفز لي للبحث و الكتابة والتقصّي.

قبل أن أذهب في عطلة إلى جنوب إسبانيا، وأحكي عن ذلك في كتاب« جزائري في الأندلس »،كنت (جزائريا في الجزائر) أتجول حسب الإمكان عبر ولايات الوطن، في سيارة الأجرة والحافلة وبرفقة الأصدقاء والأهل، دون أن تفارقني الكراسة والقلم، ومظاهر الفضول الصحفي نحو أي مكان أو مشهد أو موقف أصادفه، أو أسمع عنه.

هذه العطلة تشبه مئات العطل التي أمضاها معظمنا، داخل أو خارج الوطن في فترة ما من فصل الصيف، وهي ليست بالضرورة الأكثر غرابة وإثارة وتشويقا، بل قد تكون عادية جدا، لكنها مكتوبة

وموثقة، ولعل هذه هي الميزة الوحيدة التي جعلتها في متناول القارئ، الذي سيجد فيها كالعادة رحلة نحو الذات، لكن كالعادة من خلال الآخر.

«الجزائر تقرأ»

أين وكالتنا؟

تستيقظ صباحا، تتناول فطورك، الفطور عندي هو الإفطار، والغذاء هو الغذاء، والعشاء طبعا هو العشاء..أعرف أن 60% ممن قرأ لم يفهم الملاحظة ،لكنها موجهة للأربعين بالمائة المتبقية.-

بعد الفطور تتوجه إلى العمل، تدخل البوابة الرئيسية للمحطة الجهوية للتلفزيون بوهران، تسلم على بعض العمال الذين قدموا صباحا وهم واقفون في الساحة يتجاذبون أطراف الحديث .تصعد إلى المكتب وتلتقي مدير الإنتاج وبعض الأصدقاء من التقنيين، تقوم ببعض الاتصالات لتحضير روبورتاجات أو تدخلات مباشرة من وهران، لبرنامج صباحي يبث من مديرية الإنتاج المركزية ..لم و لن تفهم كيف مر الوقت لتجد أن عقرب الساعة الكبير يسرع للانطباق

فوق الصغير عند الرقم 12.

تخرج عائدا إلى المنزل (وهي خاصية لم تكن متاحة بالعاصمة حين كنت أشتغل بنفس المؤسسة هناك) كي تتناول غذائك قبل أن تعود إلى العمل في الفترة المسائية، وفيها يطلب منك رئيس تحرير قسم الأخبار مثلا أن تحضر نفسك للانطلاق غدا صباحا نحو ولاية معسكر، لتغطية يوم دراسي أو تظاهرة ثقافية، أو إلى تلمسان لتغطية زيارة وزير المالية، تبيّن بعدها أنها آخر تغطية له كوزير للمالية قبل أن يعود إلى مدرجات الجامعة، مكانه الطبيعي والموضوعي الذي ما كان يجب عليهأن يغادره أصلا.

في المساء تدخل إلى المنزل لتلعب مع طفلتك الصغيرة، ثم تشغل جهاز التلفاز لتشاهد نشرة الثامنة، تلك التي يتمنى الجزائريون أن يعيشوا في الجزائر التي تتحدث عنها، مع أن من يساهم في إنجازها يعيش أسوء حالا مما يعيشه الكثير من مواطنينا..

تتأكد من أن موضوعك قد مرّ، وأن من صوّرت معهم الموضوع (منتخبون، سلطات محلية، جمعية ثقافية

أو بيئية...) قد مرّوا ومرّروا رسائلهم حتى تجتنب لومهم وعتابهم .ظهور هؤلاء في النشرة الرئيسية مرة، خير من ظهورك فيها صوتا وصورة ألف مرة.. كيف ذلك؟ هذا ليس موضوع حديثنا اليوم .

تتشابه أيامك وتسير على منوال واحد، وتنتظر العطلة الصيفية التي يمر ثلثها الأول صياما وقياما، وثلثها الثاني في تغطية نشاطات الصيف وحفلاته وسهراته، وكم هي كثيرة ومتشابهة ،ليأتي الثلث الأخير الذي يجب أن تغتنمه للذهاب لأي مكان قبل أن يفاجئك الدخول الاجتماعي والمدرسي والسياسي بداية شهر سبتمبر.

في الصيف، تبدأ جدران شوارعنا المزينة بالملصقات الحزبية والفنية طيلة السنة (ولا فرق بينهما على كل حال فكلاهما يعيد نفس الإيقاعات والألحان) بالإكتساء بإعلانات من نوع آخر، وهي ملصقات الوكالات السياحية التي تغريك بعطلة من سبع ليال وثمانية أيام في تونس مثلا، في فنادق من ثلاث وأربع نجوم على سواحل الشقيقة الصغرى، مع صور

بالألوان، وأسعار عندما تقارنها بأسعار كراء المنازل في الولايات الساحلية عندنا في الجزائر حتى لا أقول الفنادق فإنها تصبح أسعارا في المتناول.

أرقام الهاتف التي توفرها الوكالات في العادة على الملصقات لا تعمل، ويجب عليك أن تكرر المحاولة أكثر من مرة .نصحني صديق لي بتحميل تطبيق هاتفي به عروض للرحلات المعتادة كل عام إلى مختلف الدول :ماليزيا وهي الأغلى، تليها دبي وتركيا وهما بنفس السعر تقريبا، ثم شرم الشيخ) ولا أقول مصر لأن شرم ليست مصر ولأنك لن ترى من القاهرة إلا مطارها الدولي (والمغرب بنفس السعر أيضا، وتونس طبعا، أقرب وأسهل الوجهات البرية منذ غلق الحدود مع المملكة الشقيقة سنة 1994.

جربت العطلة في الجزائر من قبل لوحدي، ورفقة أفراد العائلة، وكانت نفس الذكريات والمشاهد تتكرر في كل عطلة: الناموس، انعدام شروط النظافة في الأكل والمبيت، شاب ينتظرك في مدخل الشاطئ كي تدفع له مبلغا من المال، وشاب آخر ينتظرك فوق

رمال الشاطئ، وقد احتله من شرقه إلى غربه بوضعه كراسي وطاولات وشمسيات، وهذا في العادة عنده كلب، ويجب أن تدفع له أيضا مبلغا من المال حسب ما تكتريه من خدمات. ثم تدخل للسباحة في مياه أصبحت الأوساخ التي تطفو فوقها أو في قاعها كالملح في البحر.

وهذا دون الحديث عن الازدحام المروري، والتلوث السمعي والبصري الذي ينهش أعصابنا صيفا وطيلة أيام السنة أيضا. وطبعا لن تحصل على كل هذه المنغصّات مجانّا، بل أنت ستضطر لدفع مبالغ ليست بالهينة لقاء كل ذلك... تدفع و تدفع و تدفع.

لهذا، وحتى لا نكون مازوشيين أكثر مما نحن ساديون دون أن ندري. قلت لنفسي لماذا لا أجرب الذهاب في عطلة إلى تونس هذا العام، شواطؤها نظيفة، السعر معقول مقارنة بنوعية الخدمات المقدمة، وهي فرصة لزيارة بلد ستلتقي فيه طبعا بأبناء بلدك في كل مكان منه، لكنها فرصة جيدة لتغيير الأجواء،

واكتشاف سماء أخرى، وسماع لهجة مغايرة،

والابتعاد قدر الإمكان عن المشاهد المعتادة في بلدنا كل صيف.

ألقيت نظرة على العروض الموجودة في التطبيق على الهاتف، و وجدت عرضا بثلاث وأربعين ألف دينار في «حمامات جنوب» على الساحل التونسي لمدة تسعة أيام وثماني ليال، حملت الهاتف واتصلت بالوكالة وحجزت لشخصين، أنا وزوجتي قبل 10 أيام من تاريخ الانطلاق.

الآنسة التي تحدثت معي على الطرف الآخر من الخط كانت في غاية اللطف والتهذيب، وطلبت مني إرسال المال عبر الحوالة البريدية (لازالت تستعمل عندنا) لكني أخبرتها أنني سأتنقل للعاصمة وأدفع لها المبلغ نقدا (احتراما لعاداتنا الاقتصادية الأصيلة في القرن الواحد والعشرين).

تضمّن عرض الوكالة إقامة في فندق من أربع نجوم، لا يبعد عن شاطئ البحر إلا بمائتي متر. مع خرجة سياحية إلى مدينة إلى سوسة، وأخرى إلى نابل، وخرجتين إلى حمامات يسمين، وطبعا النقل

عبر باص مكيّف من العاصمة، والعودة إليها بعد نهاية العطلة.

الحاج غوغل، وصديقنا مارك زوكربيرج، لن يرسلاك إلى فراشك في نوم هادئ دون أن يتيحا لك فرصة الاطلاع على موقع الفندق في الخريطة وفي الواقع، ورؤية صوره وتعليقات وآراء الزبائن، بما فيها رأي أحدهم الذي غادر الفندق منذ سويعات قليلة.

ارتكبت جناية البحث عن الفندق في محرك البحث لألقي نظرة على آراء النزلاء، وكانت المفاجأة.

«فندق رديء»، «الكاااارثة»، «أسوء فندق رأيته في حياتي»، «وداعا للسياحة في تونس»، «طاقم المطعم يغطّ في سبات» وغير ذلك من التعليقات والتقييمات السلبية للفندق .كانت هذه أهم التعليقات في أكثر من موقع بما في ذلك صفحة الفندق ذاته على فايسبوك، فقلت في نفسي إنه لا يهم، النزلاء المعلّقون أجانب أوروبيون وهؤلاء متحسسون و«موسوسين» بتعبيرنا. وهل يمكن أن تقرأ تعليقات غير هذه لسياح يشترون

لكلابهم مياهًا معدنية للشرب؟!

خمّنت أن مكان الإقامة سيكون في مستوى تطلعات الجزائريين مثلنا، والذين سيكون الفندق بالنسبة لهم مكانا للنوم وتناول الطعام على الأكثر، أما بقية الوقت فيمكن قضاءه في التجول والتنزه في مدينة لم يسبق لي زيارتها من قبل.

منذ سنوات صارت الفنادق والمطاعم تولي اهتماما خاصا لآراء زبائنها عبر النت، في الجزائر بدأت هذه الثقافة تجد لها حيزا في وسائطنا الاجتماعية شيئا فشيئا ،لكنها في الغالب تبقى دون تأثير على وزن «في إحدى البلاد العربية: احنا تهدر على الزعيم القائد تموت ..ياو احنا في دزاير اهدر حتى تموت.»

انتقلت إلى العاصمة من وهران ليومين، ودفعت المال للوكالة التي سنطلق عليها اسم« س» ،متمنيا أن لا تكون حكاية العطلة مثل حكاية فيلم «ريح تور» الذي أنتجته محطة قسنطينة في تسعينيات القرن الماضي، والذي يحكي قصة مجموعة من الجيران قرروا قضاء العطلة الصيفية مع بعضهم، وبدأوا في

تخيل مشاهد الشواطئ والغابات والفندق حتى خاب أملهم، بداية من الحافلة المهترئة التي توقفت أمامهم وسط الحي السكني لتنقلهم إلى المخيم الصيفي المزعوم، والذي قضوا فيه جل وقتهم في ملأ الماء من الحنفية الوحيدة في المخيم.

عبرت للآنسة في الوكالة عن قلقي إزاء ما قرأت من تعليقات سلبية، فقالت لي إنها زارت الفندق والمكان قبل عشرين يوما، وهو فندق جيد ولا داعي للقلق من التعليقات التي تعتبر قديمة بعض الشيء، خاصة وأن الفريق المسير للفندق الآن هو فريق جديد، وهناك تحسينات ملحوظة في نوعية الخدمات المقدمة.

عدت إلى وهران، لأستكمل بعض الأعمال في أسبوع قبل العودة إلى العاصمة، و الانطلاق إلى تونس .قررت أن لا أصطحب معي ابنتي الصغيرة، لأنها لن تتذكر شيئا مما ستراه طيلة الرحلة والعطلة، ولأن الوالدين هما الوحيدان اللذان سيتذكران شغبها وبكائها ونعاسها في الأوقات غير المناسبة، تماما كما أثبتت تجارب من قبلنا، وستثبت تجارب من بعدنا، فكان

أن تكفل الجد والجدة بالعناية بها أثناء غيابنا.

قبل يومين من موعد الانطلاق، اتصلت بي الآنسة من الوكالة السياحية لتسألني عن تأكيد سفري، فقلت إنني على أتم الاستعداد للقفز إلى المجهول رفقة «س » وليكن ما يكون.

عُطلنا نحن الجزائريون كانت دائما مجرد مغامرات وشغب ومفاجئات، أحسن شيء فيها وحتى في حياتك بصفة عامة كي تتجنب خيبات الأمل، هو أن تتوقع الأسوء وكل جيد بعدها هو مكسب.

وصلت العاصمة ليلة ذهابي تحسبا لأي طارئ، وكم هي كثيرة الطوارئ في بلدي، اللحظات الأخيرة غير السارة، المفسدة للبرامج والمحبطة للمعنويات.

وفي صبيحة اليوم الموالي، اتصلت بالوكالة كي أسأل عن الموعد ومكان الانطلاق بالضبط، فقالوا لي إن الانطلاق سيكون على الساعة الثالثة، من ملعب 5 جويلية الأولمبي.. فكرت أنه بالنظر إلى مكان الانطلاق يبدو أن الرحلة ستكون ماراطونا حقيقيا.

كنت قد اتفقت مع زميل لي أن يوصلني إلى مكان الملعب، وقام بذلك مشكورا .

..وصلنا إلى موقف سيارات الملعب الأولمبي، وهو المكان الذي خمّنت أن الانطلاق سيكون منه حتما.. الخدمات على الطريقة الجزائرية، تتعامل معك وكأنك تعرف كل شيء، أو أنك تسكن بجوار الملعب، أو أنك متعود على السفر إلى تونس كل صيف مع نفس الوكالة.

في مدخل الملعب أوقف عون الأمن سيارتنا وراح يسألنا :من أنتم ؟وماذا جاء بكم؟ الثقة والتركيز اللذان كانا يبدوان على العون، جعلانا نطمئن على اطلاعه وإلمامه بكل صغيرة وكبيرة تحدث في هذا المكان المكلف بحراسته والسهر على حمايته، فقلنا له نحن مع وكالة «س» السياحية، وجئنا للانطلاق في رحلة إلى تونس .ارتسمت علامات التعجب على وجهه قبل أن تتحول إلى إشارات استنكار، وعدم فهم قبل أن يقول لنا: راكم غالطين ليست هناك وكالة بهذا الإسم، وليس هناك حافلة تابعة لهذه الوكالة في الموقف.

مادمت قد حفظت تقريبا طريقة التعامل مع بعض الأعوان الذين يطبقون واقعيا تلك المقولة التي ندرسها في الاعلام نظريا «:من يمتلك المعلومة يمتلك السلطة»، فقد طلبنا منه الدخول كي نشم الهواء في الموقف، ونمارس بعض التمارين الرياضية ثم نعود أدراجنا، وانطلق زميلي بالسيارة إلى الداخل حتى قبل أن نسمع منه الإجابة.

على بعد أمتار قليلة وجدنا سبعة حافلات مركونة، وبعض السيارات هنا وهناك، أمامها أناس يقومون بتنزيل حقائب السفر وتوديع أقاربهم ..مرة أخرى يخيّل لي أن أعوان الأمن والاستقبال في الجزائر هم مدراء، أو رؤساء أقسام يلبسون بذلات الأعوان ويقفون عند الأبواب.

نزلت مع صديقي أبحث عن وكالتنا السياحية، و أول ما لاحظته هو أن جميع الحافلات عليها ملصق كبير في مقدمتها، كتب فيه «وكالة ج » ،ثم شاهدت بعض الشباب يلبسون أقمصة) تي شارت (حمراء كتب عليها إسم وكالة« ج »، فتوجهت لأحدهم كي

أسأله عن الباص الذي يجب أن أركبه، طبعا جوابه كنت قد سمعته عشرات ومئات المرات في حياتي اليومية والمهنية، لكنه آخر جواب توقعت أن أسمعه من ممثل وكالة سياحية ستضطر لاحتمالي، وأضطر لاحتمالها طيلة عشرة أيام كاملة وفي دولة أخرى ..فقد أجابني بكل هدوء: «ماشي خدمتي» قبل أن يواصل: من المفترض أن وكالتكم قد أخبرتكم برقم الباص وموعد الانطلاق .

الشاب أشار إلى أوراق ملصقة في الجانب الأيمن لزجاج مقدمة كل حافلة، وقال لي ستجد اسمك في القائمة، وأين وجدت الاسم فتلك هي حافلتك.

ذهبت لتتبع القوائم في الباصات، وهو سلوك كان آخر عهدي به في حيطان الجامعة حين كنا نبحث عن «الآفيشاج »بعد كل امتحان.

وجدت اسمينا في الحافلة رقم ثمانية، وتجرعت بذلك المفاجأة الأولى، وهي كما فهمت أن وكالة«ج» وعن طريق اتفاقات مع مجموعة من الوكالات السياحية قامت بعملية مناولة، أو تعاقد من الباطن ونحن في

النهاية سنذهب جميعا مع هذه « ج .»

دعك من أن هذا الاتفاق جرى دون إخبارك أو إعلامك، فأنت دفعت مالا من أجل الذهاب لتونس، وستذهب لتنزل في فندق أربع نجوم، وستنزل .أما كيف تم ذلك ؟ ولماذا لم يخبرونا؟ وأين وكالة« س»؟ وما معنى أن تسأل أحدهم عن الباص الذي ينطلق على الثالثة فيقول لك :هناك أربع باصات تنطلق على الثانية والباقي على الساعة الرابعة، ولاوجود لانطلاق على الثالثة .فكلها أسئلة لا جدوى منها، لأن آخر جواب لها سيكون على وزن :إذا ما عجبكش الحال شدّ طاكسي.. والناس قاع ما هدرتش وغير أنت راك تسقسي (يعني المشكل راه فيك، ماشي في المشكل.)

وضعت الأمتعة في أسفل الحافلة، ثم صعدنا واخترنا مقعدين للجلوس، الساعة الآن الواحدة وعشرون دقيقة) في أغلب جهات القطر كما يقول إعلان مواقيت الصلاة في التلفزة التي أحاول أن أنساها في أول أيام العطلة، ولا أستطيع (علينا إذا انتظار أكثر من ساعتين ونصف كي يجتمع عدد المسافرين).

يبدو أنهم وضعوا لكل حافلة تتسع لخمسين شخصا شابا صغيرا يكون مسؤولا عنها، وجاء مسؤولنا يطلب منا جوازات السفر، و ورقة العبور التي تقتنيها من مصلحة الضرائب بخمسمائة دينار ،وقد نسيت أمرها تماما واضطررت لدفع 1000 دج ثمنا لنسياني، ولعدم قيام وكالتي المزعومة بتذكيري.

كانت هذه الباصات تنطلق في السنوات الماضية من شارع مقر الإتحاد العام للعمال الجزائريين، قرب ساحة أول ماي، لكن الوكالات تخلت عن ذلك لأنهم كانوا في كل مرة يبحثون عن المسافرين، الذين يختفون في الشوارع والمقاهي والمطاعم المجاورة.

الحل العبقري الذي وجدوه لهذه الإشكالية، هو جمعهم في موقف الملعب الأولمبي تحت شمس شهر أوت، أين لا مهرب لهم من الحافلات إلا الحافلات ذاتها، وبهذا تسهل عليهم عملية جمع المسافرين في أقصر وقت ممكن.

مرّ الوقت ببطء قبل أن تصل الساعة الرابعة مساءً، وتنطلق باصاتنا إلى تونس عبر الطريق السريع شرق غرب في تمام الرابعة والربع مساءً.

الحافلات التي نقلتنا إلى تونس

الطريق إلى تونس

أول مكان توقفنا فيه كان بلدة الياشير، وهي بلدة صغيرة بالقرب من مدينة برج بوعريريج، معروفة بمطاعم الشواء التي يقصدها الناس من سطيف، البويرة، وحتى من العاصمة، لتناول العشاء والعودة إلى المنزل.

أسعار المطعم كانت تونسية تقريبا، فشريحة اسكالوب، وصحن بطاطا مقلية، وصحن سلطة مشوية وقارورة ماء كلفتني 800 دينار جزائري .لا أدري كيف حسبها صاحب المطعم، لكن المؤكد أن هذا المبلغ بالنسبة له هو مجرد فكة بسيطة، بالنظر إلى المبالغ المهولة التي يتركها هنا الزبائن من المقاولين، وكبار التجار، وحتى لاعبي كرة القدم المشهورين، حيث لا تنزل البركة على عقود وصفقات كل هؤلاء

إلا حول طاولة مفروشة بأنواع مختلفة من اللحوم المشوية .وقد سمعت أحدهم ينادي قبل خروجي على 40مرقازا وبسرعة..

بعد العشاء، انطلقنا دون توقف عبر الطريق السريع إلى ولاية الطارف، آخر ولاية شرقية جزائرية على ساحل البحر، ونزلنا في إحدى محطات البنزين ليلا، في مكان ما، بعد عنابة، وهبط جميع من في الحافلات، ومكثنا بالمحطة نصف ساعة .التحكم في المجموعات الكبيرة من الناس ليس سهلا على الإطلاق. أمّا إذا تعلق الأمر بالجزائريين فالأمر أصعب.. تسيير 300عامل صيني أسهل من أن تكون مسؤولا على ثلاثة عمال جزائريين كما أخبرني أحد المقاولين ذات يوم.

في الطريق وزع علينا مسؤول الباص وقد كان شابا في أواخر المراهقة ، برنامج العطلة وفيه خرجات إلى قرطاج لاند في حمامات يسمين، وسفينة القراصنة في سوسة، و«أكوا فليبر» في حمامات شمال. ونصحنا بالخروج مع المجموعة لزيارة هذه الأماكن،

لأنها ستكون بأسعار تنافسية ومخفضة .كما نصحنا أيضا بقراءة آخر جملة في البرنامج مرتين، كي نفهمها ونستوعبها، وفيها ما يلي«:يرجي إخلاء الغرف يوم 25 أوت صباحا، على الساعة التاسعة، وشراء مأكولات مسبقا، لأننا سننطلق دون توقف في تونس وذلك لدواعي أمنية.»

«يرجي إخلاء الغرف يوم 25 أوت صباحا، على الساعة التاسعة، وشراء مأكولات مسبقا، لأننا سننطلق دون توقف في تونس وذلك لدواعي أمنية.»

وأنا أقرأ البرنامج والتواريخ والتركيز على إخلاء غرفة فندق في تونس، ونحن لازلنا في الطريق السيار بالجزائر، رحت أفكر فيما جعلني أضع مصير عطلتي في يد وكالة لا أعرف أصحابها، كي تضع هي بدورها مصير عطلتي في يد وكالة لا أعرف حتى أنها هي من تسلّمته .لينتهي بي الأمر في حافلة يتولى مسؤولية ركّابها شاب بدا لي أنه لا يعرف الشيء الكثير عن رحلتنا .وهكذا رحت طيلة الطريق أتأمل حال الحافلات التي ترافقنا، وفيها شباب وعائلات وحتى

شابات ونساء جئن بمفردهن، يقودهم مسؤولون شباب، بعضهم يتصنع الجدية بتقطيب الحواجب، والكثيرون منهم يسحقون السجائر تحت أقدامهم في كل مرة تتوقف فيها الحافلة في الطريق، تعبيرا عن الثقة والسيطرة على الموقف.

كنت قد اقتنيت بعض الجرائد اليومية لأقرأها في الطريق، مع أنني أقلعت عن استعمال الجرائد كوسيلة لتمضية الوقت، وعوضت ذلك بقراءة الروايات على هاتفي الذكي مؤخرا.

كنت بصدد إنهاء رواية « البصيرة »للكاتب البرتغالي المتوج بجائزة نوبل خوزي ساراماغو، والتي تحكي عن قصة مثيرة لانتخابات جرت في عاصمة دولة أوربية ،وكانت جل الأصوات المعبّر عنها بيضاء لاغية، وهو ما وضع النظام السياسي في حرج عظيم، وبدأ في تجريب الإجراءات السياسية والأمنية لمعالجة الأزمة. رواية من أربعمائة صفحة مثيرة وجديرة بالقراءة.

المشكلة في الجرائد التي اقتنيتها أن عناوينها الرئيسية كانت أسوء العناوين التي يمكن أن تقرأها

في أول يوم من عطلتك باتجاه تونس، حيث كتبت جريدة الشروق تقول :جزائريون يقطعون إجازاتهم بتونس ويتعرضون لإهانات واعتداءات بتواطؤ من الشرطة التونسية.

عنوان افتتاحي آخر في جريدة أخرى يقول: محتجون جزائريون يغلقون الحدود.

لكن، ومادامت جرائدنا قد عوّدتنا على أن تقول عناوينها شيئا، ثم تقول مواضيعها شيئا آخر لدرجة أنه يناقض عنوان المقال أحيانا، فقد جلست في اطمئنان انتظر الوصول إلى الحدود التي ورثناها عن المستعمر، ولا أعرف إن كان ذلك علينا نعمة أو نقمة.

بعد العاشرة ليلا، وحين انطلقنا من آخر محطة للبنزين كي نتجه إلى الحدود اشتعلت شاشة التلفزة في حافلتنا، وشغل السائق المسلسل التونسي« نسيبتي العزيزة»، ربما لوضعنا في الأجواء التونسية من الآن، مما حرمني من النوم، وأغرقني في شبه نعاس مزعج لا هو بدأ ولا هو اكتمل.

حدود التراب وحدود الإنسان

بعد منتصف الليل، وصلنا مركز العيون الحدودي بولاية الطارف، طابور السيارات الموجود لم يكن طويلا لكن المركز بدا وكأنه لا يشتغل .قامت حافلاتنا باختراق صفوف السيارات كي تصل إلى الحاجز، وتسبب ذلك في ازدحام وإغلاق تام للمعبر. هبطت من الحافلة لأتأمل المكان ..الظلام كان شديدا والسيارات كانت ممتلئة بالأمتعة والعائلات، مركونة بشكل فوضوي.. أصلا المكان عبارة عن غابة، والطريق ليست مستوية، بل هي مرتفع، أي أن جميع المركبات فيها تصعد بالسرعة الأولى أو الثانية، وتضطر لاستعمال المكبح اليدوي عند كل توقف.

لا أعرف ما الذي جرى بالمركز الحدودي، ولا أحد استطاع أن يخبرنا .ما عرفته بعد ساعة من الانتظار

هو أننا سنتوجه إلى مركز أم الطبول الحدودي، الواقع إلى الشمال للدخول إلى تونس، وهكذا عدنا إلى حافلاتنا، وانطلقت بنا إلى مركز أم الطبول.

وصلنا قبل الفجر إلى طريق صاعدة ومتعرجة، كان الظلام والضباب يلفّان المكان وتوقفت بنا الحافلات في مكان ما من الطريق، حين انقشع الظلام قليلا، وجدنا أنفسنا وسط طابور من عشرات السيارات التي ستدخل جميعا لقضاء العطلة في تونس.

خرجت أتمشى صعودا، كي أكتشف أين نحن من الطابور، وأين هو الطابور من المركز الحدودي .المنظر الطبيعي كان جميلا، لكن كمية الأوساخ كانت أكبر وأقوى من نأ ينطبع في ذاكرتك منظر تلك الاشجار الخضراء المتشابكة بدل القارورات وحفاظات الأطفال، وبقايا الطعام، والأكياس المرمية في كل مكان على حافتي الطريق.

أناس يقضون حوائجهم البيولوجية أينما وجدوا ساترا طبيعيا، نرفزة بين السائقين تشتعل أحيانا بسبب تجاوز غير قانوني لسيارة أمام أخرى،

وآخرون يقطّرون آخر ما تبقى في بعض قواريرهم من الوقود، هذا السائل الذي سيتضاعف سعره على الجانب الآخر من الحدود أضعافا مضاعفة، لذا فإن فكل قطرة منه تضعها في خزانك وأنت هنا في الجزائر هي مكسب لك .ولا بأس بعد ذلك أن يتبخر كل شيئ في تونس بما في ذلك العملة الصعبة التي تحملها في جيبك.

قضينا أربع ساعات كاملة ونحن نتمشى ببطء في طريق صاعد، قبل أن يتراءى لنا المركز الحدودي.. هنا قضية الثلاثين دينارا التي تفرضها الحكومة التونسية على كل سيارة أجنبية تدخل البلاد، تخيم بظلالها على حديث المصطافين المتجهين إلى الداخل التونسي .حتى رجال الأمن هنا يتحدثون عن القضية ،وسمعت أحدهم يقول لزملائه :العام الماضي أيضا أقيمت الاحتجاجات ومنع المواطنون السيارات من الدخول لكن الضريبة بقيت على حالها ودفعها الجميع.

والثلاثون دينارا هي ضريبة أقرّها قانون المالية

التكميلي التونسي، تدفعها كل سيارة تحمل لوحة ترقيم أجنبية تدخل التراب التونسي .

إذا كان الجزائريون عاطفيين ونوستالجيين في التعاطي مع بعض المواقف على وزن« المهم ربحنا لالمان في خيخون، »فإن التوانسة كما يبدو، لديهم ذكاء اقتصادي، وقدرة على خلق الثروة من أبسط الأشياء، ولا عجب أن يمنعوا دخول منتجاتنا الزراعية لمنافستهم، في إطار إجراءات الحمائية الإقتصادية المعروفة دوليا.

على الساعة الثامنة والنصف صباحا، وصلنا إلى المركز الحدودي الجزائري أم الطبول، ومن هناك يمكنك مشاهدة الأعلام التونسية على بعد أمتار قليلة..

عند الوصول إلى المركز الحدودي، شاهدنا الباصات الأربعة التي انطلقت من ملعب 5 جويلية ساعتين قبلنا، مركونة في نفس المركز، وقمنا نحن أيضا بركن باصاتنا، ونزل شباب وكالة« ج »بعلب الأرشيف التي بداخلها جوازات سفرنا، للقيام بإجراءات الختم والمراقبة الضرورية.

هذا المركز الحدودي يبدو كبيرا، وفيه كادر بشري أمني وجمركي معتبر، مما يعني سرعة نسبية في تخليص إجراءات المرور مقارنة بباقي المراكز، على الأقل هذا ما يحكيه البعض ممن التقيتهم هنا.

في ظروف المصير المشترك، و«كي تعمّ تخفّ» كما يقول المثل ..يصبح الحديث والكلام مع جميع من في المكان عملية سهلة، بل ومستحبة لكسر الرتابة وإشباع الفضول، والتعرف على خبرات العابرين من هنا، خاصة المتعودون منهم على المرور أكثر من مرة في السنة.

الخدمات الموجودة هنا رديئة، نظافة المراحيض ليست بمستوى نظافة وشياكة سيارات مستعمليها من المواطنين، والمقهى الوحيد الموجود يفرض أسعارا تبدو و كأنها حدودية.

رجال الأمن يطلبون من الناس عدم مغادرة سياراتهم، والانتظار في الطابور إلى غاية المرور ،ولكن هيهات ..اضطررت لأقدم نفسي باستعمال بطاقة الصحفي المحترف المؤقتة، كي يتركني عمي

الشرطي أتوجه إلى المقهى وأجلب كأسين من القهوة، لشابين قبلي منعهما من المرور بحجة أنه لا يستطيع أن يترك الجميع يترجلون ويسرحون في محيط المركز الحدودي، خاصة وأن جوازاتنا لم تختم بعد. كانت تلك المرة الوحيدة التي استعملت فيها البطاقة، وما عدا ذلك فهي مجرد كارت لا يعطيك أي ميزة لا خارج الوطن ولا داخله.

كان كل باص يحمل خمسين فردا قدموا لقضاء العطلة، نصفهم من العائلات، والنصف الآخر من الشباب، وكالعادة العائلات في مقدمة الباص، ومنهم أنا والشباب في المؤخرة، وهم يقومون بفوضى وشغب مسموع لكن في إطار محترم.

كان عددنا حوالي المائتين حيث ننزل وننتشر خارج الباصات الأربع، والعشر دقائق التي يعلن عنها مرشد الحافلة عند التوقف، تتمدد إلى نصف ساعة وربما أكثر، ولا يجمع الشباب في الحافلة من جديد إلا صوت محركها على أهبة الإقلاع مرفوقا برشقات صوتية من منبهها المزعج.

في الحدود، تكونت بسرعة جماعات وصداقات بين ركاب الباصات المختلفة، وراح الجميع يتحدث حول أي موضوع لتمضية الوقت.

مجموعة من النساء كن بجانبي، رحن يتحدثن عن جمال مراكش وشواطئ أغادير مقارنة بتونس، بينما راح بعض الشباب الذين التقيتهم يتجادلون حول البارصة والريال والمولودية والحراش .أحد الآباء الشباب الذين كان غير بعيد عني داخل الباص، كان منشغلا طيلة الوقت بإسكات رضيع حمله معه ،فيما كانت زوجته تلتقطه منه في بعض الأحيان من أجل إرضاعه. كما أخبرتكم سالفا، اصطحاب الأطفال الرضع في العطل خطأ، فهم لن يتذكروا من لحظاتها شيئا واحدا، ووحدك من سيتذكر وبحسرة كل لحظات بكائهم أو مرضهم أو انزعاجهم، لذلك فأحسن ما يمكن أن تفعله هو أن تتركهم لحضن الجد والجدة يبقون فيه، على أن تقوم برشوتهم عند العودة بأكبر كمية ممكنة من الهدايا.

لكن، ما الذي كنا ننتظره من المرشدين السياحيين

في أطوار الرحلة؟ هل فعلا كنا نتوقع فقرات ترفيهية ،أوبعض الشروحات في الطريق، حول المناظر والمناطق التي يقطعها الباص كما نشاهد في الأفلام والأشرطة بما في ذلك القديمة منها؟ هل كنا ننتظر أن يكلمونا ويطمئنونا على سير برنامج الرحلة، أو عمّا ينتظرنا في فندق تونس، أو أين يقع الفندق؟ وكيف يمكن أن نقضي وقتنا فيه؟ وما هي المرافق المجاورة له؟

الواقع أنني تخليت عن كل هذه الآمال المبالغ فيها، حين سألت مرشدنا لأول مرة وهو يوزع علينا برنامج العطلة في الحافلة في مكان ما من الطريق السيار بنواحي سطيف عن إمكانية الخروج للتنزه والتجول ليلا في محيط الفندق، وهل هناك محلات ومطاعم وصالات للشاي بجانبه،خاصة وأنني لست وحيدا، ويجب أن أفكر دائما في شخصين حين أسأل أو أستفسر .وحينها قال لي بالحرف الواحد: «تونس بلاد الأمان، خاف على الراجل، وما تخافش على المرا.. راني نقولك أنا موالف نروح ما تكسّرش راسك قاع..

واقيلا جامي رُحت؟» فقلت له إنها أول مرة .. ومع أنها لم تكن كذلك، لكن لا بأس أن تُشعر هذا الشاب أنه يعرف تونس أفضل منك، فربما كان ذلك مدعاة كي يعطيك معلومات أكبر حول ما يعرفه وجرّبه.. مع أن التجربة في النهاية أثبتت أن ذلك لم يحدث، ولن يحدث.

على الساعة التاسعة صباحا، كان قد تم ختم جوازاتنا من الجانب الجزائري، وحتى من الجانب التونسي، رغم أننا لازلنا في الجزائر.. وتم توزيع جوازات السفر على ركاب الباص من جديد، لمراقبة الأختام التي فيها .الختم الأحمر للّولة عن الجانب التونسي، وختم أم الطبول على الجانب الجزائري.

المشكلة في باص على متنه خمسون راكبا، أن مسافرا واحدا يمكن أن يعطل تسعا وأربعين مسافرا، لسبب أو لآخر، وهكذا تأخرنا إلى غاية العاشرة صباحا، بعد أن انتهت عطلة ثلاثة من الشباب في المركز الحدودي، بسبب عدم تسوية وضعيتهم تجاه الخدمة الوطنية، فيما تركنا آخر ينتظر والده لاصطحابه، لأنه لم يبلغ

سن الرشد القانوني، ولأن رخصته الأبوية لاغية بعد أن استخرجها من البلدية، بدل مركز الشرطة (دارها نية في الهبال طبعا.)

قمت بشراء 150 دينارا تونسيا من مقهى المركز الحدودي، وطبعا فهذا سلوك غير قانوني، ولا يدفعك للقيام به إلا السلوك غير الإنساني لبنك الجزائر، الذي يرسلك إلى خارج بلدك بمنحة من 115 يورو، تقدم لك مرة في السنة (وقد أصبحت الآن تقدر بخمس وتسعين يورو في 2020).

الدينار التونسي تقابله ثمانون دينارا جزائرية، ولا أدري من فينا البلد الغني الشاسع النفطي، وما هو البلد الذي يعيش أزمة ومخلفات ثورة ومرحلة انتقالية، بالنظر إلى هذا الفارق في قيمة العملة.

تحركت الباصات أخيرا، وعبرت بنا إلى التراب التونسي، حيث أمكننا قراءة لافتة كبيرة كتب عليها بالبنط العريض«مرحبا بأشقائنا الجزائريين.» التوانسة يحبون الجزائريين والجزائريون أيضا يحبون التوانسة. وعلى كل حال كل الأشقاء العرب

يحبون الأشقاء العرب في اللافتات المعلقة.

ما إن خرجنا من المركز التونسي - دون حتى أن نرى جمركيا تونسيا واحدا وهم كما يبدو لا يحتاجون لمراقبة باص من السياح جاؤوا لصرف أموالهم في تونس والعودة من جديد من حيث أتوا -حتى توقفت قافلتنا من جديد في مخرج الجانب التونسي من الحدود.

خيّل لي أن الباصات لا تمشي ثم تتوقف أحيانا، بل متوقفة و أحيانا تمشي .

سبب التوقف هذه المرة وجيه جدا، ينتصب في أول عشرة أمتار من مركز ملولة ديوان سياحي، مكتب صرف للعملة، وكالة سياحية، مطعم ومقهى، واصطفت خيم صغيرة لمختلف متعاملي الهاتف النقال، الموجودين في تونس، والذين هجموا على الباص - كما يهجم سائقوا سيارات الأجرة والكلونديستان على حافلاتنا في محطات النقل البري بالجزائر للظفر براكب -وراحوا يعرضون علينا شرائح أوريدو وأورانج ومزاياها المختلفة .هنا فقط

استمعت لنصائح وإرشادات أصحاب الوكالة بكل اقتناع، والذين نصحونا بعدم اقتناء شريحة هاتف بعشرة دنانير تونسية، وتأجيل ذلك إلى حين الوصول أين سنجدها بأسعار أقل بكثير.

لافتة ترحيبية بالسياح الجزائريين
بالجهة الحدودية التونسية

لتبدأ العطلة

انطلقت الحافلات بعد هذا التوقف الممل، ولا أدري لم أصبحت بلدة الحمامات تبدو لي بعيدة جدا، فنحن في الطريق منذ الرابعة من يوم أمس، و ها نحن للتو ندخل تونس، وأمامنا ساعات أخرى كي نقطعها من غربها إلى شرقها.

أول مدينة مررنا جنبها في تونس هي مدينة طبرقة السياحية، ثم منها إلى مدينة نفزة التي مررنا وسط شارعها الرئيسي المزدحم.

من وراء زجاج نافذة الباص رحت أشاهد نفس العمران، ونفس الوجوه، ونفس الزحام كالذي عندنا في الجزائر، مع حضور أوفر نسبيا للمرأة بكامل فئاتها العمرية في الشارع.

لم تكن الصورة أمامي واضحة جدا، لكن إحساسا

بداخلي جعلني أعتقد أن تونس ما قبل الثورة، ليست كتونس ما بعد« بن علي هرب.»

بعد نفزة مررنا على مدينة باجة، وبعدها سلكنا الطريق السيار إلى حمامات .قافلتنا لا تزال وفية لعادات التوقف، وذلك للم شمل الباصات في كل مرة.استنتجت أننا يجب أن نصل إلى الفندق في وقت واحد، كي يتم استقبالنا مرة واحدة، وتوزيعنا على غرفنا التي تنتظرنا.

استخرجت من جعبة حكمنا الشعبية والتي أجدها دائما في الموعد لتخفف عني ثقل أي موقف أصادفه، الحكمة التي تقول« ما بقاش قدّ اللّي فات » ،و قلت لنفسي ربما سنصل في تمام الرابعة، كي نتمّ نصاب الأربع وعشرين ساعة في الطريق.

الطريق السيار في تونس صغير في العرض، صغر مساحة هذا البلد، لكن أهم ما فيه أنه غير مجاني ،وهذا ما يجعلك كمستخدم لهذا الطريق تدفع ثمن الخدمة، ويمكنك بعدها الاحتجاج أو تقديم الملاحظات حول الحفر، أو المقاطع المهترئة منه .وهذا

ما لا يتاح مع الطريق السيار ببلادنا، أين لا تملك كمواطن يستخدم هذا الطريق مجانا منذ سنوات أن تبدي رأيك في سلبياته، وسبل تحسينه، فأنت لم تدفع فيه مليما واحدا يعطيك هذا الحق وعزاؤك الوحيد أنه أنجز بمال النفط، الذي هو مالك نظريا، أما في الواقع وبنص القانون، فكلنا يعرف أن ما تحت الأرض بما يفوق المترين هو ملك للدولة، وأنت غير معني بما وجدت تحت هذا العمق من منزلك، إلا إن وجدت جثة إنسان .. أين ستكون أول من يتم التحقيق معه حول جريمة قتل محتملة.

بالحديث عن البترول، يتعجب الجزائريون والتوانسة أيضا من عدم وجود نفط في بلد يقع بين أكبر بلدين نفطيين في الشمال الإفريقي (ليبيا والجزائر) ويرون أن البحث عنه لازال ممكنا في الصحراء التونسية، أو في سواحلها أيضا.

والحقيقة أن في تونس بعض الآبار النفطية الصغيرة، في صحرائها قرب الحدود الجزائرية، تنتج ستين ألف برميل يوميا .غير أنها مستغلة منذ

عشرات السنين، وهي الآن تدخل مراحلها النهائية قبل النضوب، فصحراء تونس تعتبر صحراءً شمالية ،مقارنة بصحراء ليبيا والجزائر العميقتين إلى الجنوب، ثم إن المملكة الأردنية الهاشمية أيضا تقع بين بلدين يمتلكان أكبر احتياطات النفط في العالم (المملكة السعودية والعراق) ومع ذلك، ليس في بلد الملك عبد الله الثاني قطرة نفط واحدة.

الذكاء إذن يكمن في كيفية استغلال هذا الجوار، فالأردن وتونس لا يهمهما البترول، بل تهمهما أموال دول البترول .الدليل أن الليبيين، والجزائريين اليوم بدرجة أكبر، يصرفون أموالهم في تونس إن احتاجوا إلى الراحة في العطلة، أوحتى إلى العلاج في مختلف المصحات التونسية التي تقدم خدمات تنافسية جدا، وبنوعية تجعل من مواطني البلدين زبائن دائمين ومستمرين.

الأردن أيضا عرف كيف يستميل رؤوس أموال خليجية، من خلال خدماته السياحية والصحية ،وحتى التعليمية، حيث يزاول الكثير من أبناء الخليج

دراساتهم في كبريات الجامعات الأردنية.

على الساعة الرابعة مساء، دخلنا محيط الحمامات، هذه المنطقة السياحية التي تنتصب على طول ساحلها الهادئ مئات الفنادق والإقامات السياحية. إنها الترمومتر الحقيقي، الذي يقيس مقدار النجاح أو الفشل السياحي في البلد.

على الساعة الرابعة والربع مساء، توقفت حافلاتنا أمام الفندق، وانتهت الرحلة البرية المتعبة لتبدأ العطلة الصيفية أخيرا.

حكاية وحكايات

بينما كان أحد الشباب يصعد إلى الباص بعد أن توقفنا في الطريق، سمع كلمة من شاب آخر، ظن أنها موجهة له فاستدار وقال لمن ظن أنه تكلم« :راك معايا؟»

« لالا مارانيش معاك، وشبيك موسوس؟»

«عندبالي راك معايا ..راك عارف اللي ماشي موسوس ماشي راجل.»

«آوّاه لازم يقطعولك التوسويس مع الصرة باش تعيش مليح.»

« ياو احنا قطعولنا النيّة مع قطيع الصرة»..

كانت هذه الجملة الأخيرة بالذات هي أدقّ تعبير

عن العقلية التي يتمتع بها مواطنونا، سواء كانوا في العمل، أو في العطلة .ليس من السهل أبدا خداع الجزائري أو استغفاله، حين سألت بعض المسافرين معي من المتعودين على المجيء إلى الفندق الذي سننزل فيه، وعن خدمات هذه الوكالة السياحية لحد الآن، أجابني أحدهم بما معناه أن الجميع متفق على تناسب الخدمة مع السعر، وأن« استمتع بعطلتك على البحر، وأغمض عينيك، وافتح جيبك واعفس على قلبك، وابتسم تخرج التصويرة مليحة..»

وصلنا إلى الفندق ذو الأربع نجوم، ووجدنا عامل الاستقبال في ساحة الفندق الخارجية يحيينا بابتسامة، ويعانق المرشدين السياحيين الذين جاؤوا معنا، فهو لم يرهم منذ عشرة أيام، أي منذ مرافقتهم لآخر فوج من السياح الجزائريين الذي كان هنا.

تمّ إدخالنا إلى قاعة اجتماعات كبيرة، وأعطونا استمارات لكتابة معلوماتنا، وهو إجراء بدا لي أنه كان بالإمكان أن نقوم به في الباص، لربح بعض الوقت. ملأنا الاستمارات ووضعناها داخل جوازات السفر

،ثم سلمناها لمسؤول الباص، كي يذهب بها لموظف الاستقبال ليمنحنا غرفنا.

الإجراء أخذ وقتا طويلا، باعتبار أن سياحنا ليس عندهم سيالات وأقلام، ولذلك كنت من بين الأوائل الذين أنهوا هذا الإجراء الروتيني .غير أن ذلك لا يعني بالضرورة أنك أول من سيحصل على الغرفة ،لأن الجوازات تم تجميعها كلها تباعا فوق طاولة الاستقبال، حيث يقوم الموظف بتسجيل النزلاء، وترتيب جوازات العائلات على حدى، وجوازات الشباب في جهة أخرى.

كأي مواطن جزائري لديه فقدان ثقة مزمن في الإجراءات الإدارية، تسمّرت أمام قسم الاستقبال أراقب العملية، رغم أن مسؤول الباص طلب مني الجلوس ليتكفل هو بالأمر، لكنني لاحظت أنه ضائع، ويطمئنك دون إقناع، فلا شيء يدل أنه سيدفع جوازي ،خاصة وأن صبر بعض المسافرين بدأ ينفد، وأرادوا كلهم الحصول على الغرف حالا كي يرتاحوا من عناء السفر. ومع ذلك جلست قليلا في بهو

الاستقبال، إذ كان لابد من الثقة بعمل هؤلاء، حتى لا نضغط عليهم ونشتت تركيزهم، ثم إن أمامهم مئات جوازات السفر،والعمل مرهق، وحتى لو كنا مكانهم لطالبنا بالهدوء، وابتعاد الزبائن قليلا كي نقوم بالعمل بشكل جيد. لكن هيهات.

من مكاني، لاحظت بعض تدخلات خاوتنا السياح مع واحد من شباب الوكالة، الذي كان يقدم جوازا على آخر، كي يرضي بعض من يعرفهم، أو ربما بعض من لا يريد أن يعرفهم، وقد أزعجوه بإلحاحاتهم .قمت من مكاني مرة ثانية، وتوجهت إلى هذا الشاب وقلت له :صدقني لو جئت بمفردي لذهبت للسباحة في الشاطئ، وأترككم في سلام تنهون توزيع كل الغرف، وحين تتبقى آخر غرفة اعطوها لي، لكن مادمت رفقة زوجتي، فأنا أطالب بمراعاة هذا الجانب. الشاب سألني إن كان جواز سفري موجودا، وهل ملأت الاستمارة. فقلت له: كله تمام.. مفتاح الغرفة لو سمحت ولن تراني طيلة العطلة.

حصلت على المفتاح، وصعدنا لوضع الأمتعة. الغرفة

كانت تطل على مسبح الفندق، ويبدو أنها كانت من بين أجمل الغرف وأحسنها موقعا، فهي في الطابق الثالث وبعيدة عن فوضى المسبح، وتطل على البحر البعيد بحوالي مائتي متر.

بعد اطمئناني على غرفتي، نزلت من جديد إلى بهو الفندق للتعرف على المكان، فلا داعي للارتياح من عناء السفر لأن العطلة ستكون كلها راحة، وكما يقول المثل« لا تستعجل الأمور إليك كي لا تستعجلها عنك.»

في بهو الفندق، الهرج والمرج كان كبيرا، جوازات السفر كانت مكدسة فوق طاولة الاستقبال، والمسافرون انتشروا جلوسا ووقوفا في كل مكان.أطفال يجرون ويلعبون، صراخ هنا وبكاء هناك ..جميع من هنا جزائريون، ينتابك شعور أنك في حي شعبي مكتظ.

إحدى العاملات في الفندق راحت تكلم أحد مسؤولي الوكالة، لتشتكي له من نزلاء غرفة لم تفهم إلى الآن كيف تمكنوا من كسر« البانيو »الموجود في حمامها..

ردّ الشاب كان عفويا جدا، وتلقائيا أيضا: ما عندي ما ندير لك أختي ..شوفي معاهم .وين راهم؟ حوّسي عليهم.

خرجت من الفندق لأنزل إلى الشاطئ، واكتشف موقعه، فقد قالوا لنا إن للفندق شاطئا خاصا، وكل الفنادق في تونس تملك مربعا خاصا بمصطافيها على الشاطئ، يتم تزيينه وترتيبه والحفاظ على نظافته بشكل دوري، وتجد فيه كل الخدمات التي تطلبها.

الشاطئ في النهاية لم يكن بعيدا، ورماله كانت رقيقة وناعمة .حين صافحت قدماي موجة بحر خجولة، انسحبت سريعا لتترك المكان لأخرى، قلت في نفسي :هل كان علي أن أقطع كل هذه المسافة من أجل شاطئ نملك مثله في البلد؟ والإجابة كانت نعم طبعا.

عدت إلى الفندق ذو الأربع نجوم، وقد مالت نجمة خشبية من لافتة مدخله الرئيسية، في تعبير واضح عمّا آل إليه هذا الهيكل السياحي الكبير، الذي يحوي 470غرفة كاملة، لا يمكن ملؤها إلّا بأعداد غفيرة غير متجانسة من السياح، ولن يوفر لك هذه الفسيفساء

إلا الجزائريون.

السائح الجزائري ليس لحوحاً جدا، إذ يكفيه شاطئ بحر، وغرفة ينام بها، وإفطار وعشاء يملأ امهببطنه .وأما البرنامج وكيفية التجول في المدينة، فهو من الفطنة والذكاء يجعله يعمل مرشدا شعبيا في أي منطقة ينزل بها، بل ويعطيك بعد 48 ساعة من وصوله لمكان إقامته على الأكثر كل أسعار الخدمات والمأكولات والنقل الموجودة هناك، مع نصائح وإرشادات مهمة، لن تجدها في أي دليل سياحي مكتوب، و بأي لغة.

هذه الميزة لا تروق بالضرورة لبائع الخدمة والمنتوج السياحي، الذي من مصلحته أن يتمتع السائح ببعض السذاجة كي يكون المدخول أكبر.

داخل الفندق، لمحت من بعيد شخصا خُيّل لي أنني رأيته من قبل في وهران أكثر من مرة .الغريب أن ما أعرفه عنه هو كونه رجل أعمال، ومستثمر ناجح، ويمكن أن يمنح لنفسه عطلة في أي فندق في أي دولة من دول العالم.

اقتربت من صاحبي وبادرته بالقول : كيف تسير أمور العطلة معك في هذا الفندق؟

أهلا أهلا مرحبا بالضحايا الجدد..هههه .استغرق كلانا في الضحك، ولسان الحال يقول«:أنا ما نقولك، وأنت ما يخفى عليك.» سألته مباشرة عن المطعم والأكل و البيفي المفتوح.

فقال لي: إذا كنت ستبقى ثمانية أيام هنا مثلنا، فستأكل البطيخ الأحمر الساخن لمدة ثمانية أيام، بالنسبة للأكل فهو رديء وغير شهي.. ليس هناك صف أو طابور، الفوضى ستكون سيدة الموقف، ومن الأفضل أن تبتعد عن كل ذلك.

هل جئت رفقة عائلتك سألني مبتسما .فقلت :أجل. إذن الأمر بسيط، سيحترمونك ويهتمون بك، إنهم يعرفون الفرق بين النزيل الجاد والمسالم، والنزلاء المشاغبين .يتبين من وجوه القادمين معكم في الحافلات التي وصلت منذ قليل، أنكم مجموعة جيدة ومنظمة وسوف تقضون هنا وقتا ممتعا .بالنسبة لي، أوقعني الحظ هنا مع مجموعة كبيرة من الوانتوثريست من

خاوتنا، ومسيرو الفندق أيضا لا يهمهم الأمر كثيرا، «واحد يرقّق الخبزة ولاخر ياكل» مرتين، والحالة ماشية.

رحت أسأله :لكن أخبرني يا صديقي، كيف وقع اختيارك على هذا الفندق، وجئت مع وكالة سياحية ،وأنت تستطيع كراء منزل لوحدك وتذهب إلى حيث تريد في العطلة.

قال لي :إنها قصة طويلة، ولكن ومادام الصحفيون يحبون القصص الطويلة فسأخبرك..

كنا في سهرة رمضانية، استمرت إلى ساعة متأخرة من الليل رفقة بعض الأصدقاء، نتحدث عن العطلة الصيفية المقبلة وأين يمكن قضاؤها، فعرض علي أحدهم أن أذهب إلى تونس رفقة وكالة سياحية يملكها، ولا أعرف إلى دحـ الآن كيف وافقت على ذلك بعد إلحاحه .لقد أخبرنا عن جمال مدينة الحمامات ،ونظافة الشواطئ، وخبرته الطويلة في تنظيم الرحلات السياحية، والعلاقات التي يملكها مع كبار ملاك الفنادق والوكالات التونسيين، وطمأنني كلامه

إلى حد بعيد .فضلت المجئ إلى هنا عبر الطائرة ،وتركت سيارة المرسيديس في وهران، لأن السياقة من الغرب الجزائري إلى تونس متعبة جدا، و حين وصلت إلى هنا، فاجأني الفندق منذ البداية بمنظره الضخم المتهالك، وأحسست بفداحة الخطأ الذي ارتكبته، بحثت عن فندق آخر فلم أجد ما يناسبني، وبقيت مبتور الإرادة، ودون سيارة، وصار عزائي الوحيد هو اقتسام أجواء ووقع هذه المصيبة مع بقية المجموعة التي قدمت من وهران، في انتظار أن نعود غدا إلى الوطن، وبعدها سيكون لي حديث طويل مع صاحب الوكالة السياحية.

تركت صاحبي بعد أن تمنيت له عودة ميمونة، وعدت إلى الغرفة كي أجهز نفسي لتناول أول عشاء لي، والتعرف على البيفي المفتوح الذي ينتظرنا ابتداء من الساعة السابعة مساء.

الفندق كان كبيرا، وأتصور أنه عندما فتح أبوابه قبل عشر سنوات من الآن، كان تحفة معمارية تشبه فنادق إفريقيا الاستوائية، ففي حديقة مسبحه وفنائه

وحتى الديكور واللوحات المعلقة في أرجائه إحالة إلى مشاهد الطبيعة الإفريقية البرية والمتوحشة، لكنها ديكورات بدأ يكسوها اليوم الغبار، وقد فقدت الكثير من ألوانها ورونقها.

عشر دقائق بعد الساعة السابعة دخلنا مطعم الفندق، لأجد أجواء« سوق الأربعاء »بوهران، حيث الهرج والمرج والزحام .في ركن واحد من المطعم اصطفت خمس عربات، وضعت فيها أصناف من السلطات و الأكل والتحلية، وهي مكونة من :صحن كبير من الدلاع، وصحنين وضعت فيهما قطع حلوى صغيرة غير مطبوخة جيدا، ولا تغري بالأكل .في العربة الثانية وضعت سلطة خيار و هريسة وزيتون وكاشير وبطاطا وسلطة أخرى .في العربة الثالثة أين الأكل الساخن، يقف عاملان من المطبخ للتوزيع والتنظيم، وحتى الحراسة، لأنها تحتوي على اللحم والدجاج والسمك، وفي العربة الرابعة فلفل مقلي ومعكرونة وباذنجان.

لا وجود لصف أو طابور للأكل، الكل يحمل صحونا

ينقض بها على العربات من كل جهة، ويلتقط منها المثنى والثلاث والرباع، وسط دهشة وحيرة واستنكار البعض، وفرحة وبهجة واستمتاع البعض الآخر.

لم يكن الأكل مطبوخا بشكل جيد، كما كان منقوصا جدا من حيث النكهة، وكأنه قد غلي في الماء، أو قطّع على عجل، أو قلي في زيت وملح، وانتهى الأمر .لكنه كان جميلا من حيث الشكل والتقديم والتنسيق، وهي الأمور التي تتناولها الأعين لا المعدة.

لاحظت وجود بعض السياح الروس بالمطعم وقد كانوا لا يقلّون حماسا في التجاوز وملء الصحون، تساعدهم في ذلك بنيتهم الجسدية المعتبرة، وعدم فهمهم لما يدور من حولهم من كلام وحديث وإشارات وتغامز.

بعد العشاء، وحسب البرنامج، خرجنا في الحافلات إلى منطقة ياسمين حمامات، أين تتمركز مجموعة ضخمة من الفنادق والمطاعم والأسواق والمحلات العصرية، و هي تبعد عن فندقنا بحوالي الكيلومترين. انطلقنا الساعة التاسعة مساء، ورجعنا الساعة

الواحدة ليلا .احترام التوقيت كان لافتا من طرف الباصات، ومن طرف المجموعة بكاملها .استنتجت أن خاوتنا يسرفون في الهزل والتعطيل أثناء الجد والعمل، لكنهم جادّون جدا في العطلة .على الأقل في هذا الموقف بالذات.

في اليوم الموالي لم يكن لدينا برنامج محدد من طرف الوكالة، وكان كل واحد حر في اختيار ما يناسبه، في بهو الفندق وجدت مجموعة كبيرة من السياح من وهران، وقد حزموا حقائبهم للعودة من جديد على متن الحافلة التي أتت بهم، هكذا هي الحركة في الفندق، مجموعات مغادرة وأخرى تصل يوما بعد يوم في هذا الموسم الذي يبدو جيدا نسبيا بالنسبة للسياحة التونسية عموما، ولهذا الفندق خصوصا.

فضلنا الذهاب إلى المدينة القديمة للحمامات، التي لا يفصلها عن البحر إلا شاطئ صغير.

لا يزال سور المدينة قائما، ولا تزال المنازل القديمة بالداخل على هدوئها ونظافتها، جدرانها بيضاء وأبوابها ونوافذها مطلية بالأزرق، وتتدلى في شوارعها

الضيقة نباتات متسلقة بألوان وردية، تجعل من المكان لوحة زيتية زاهية الألوان تسرّ الناظرين.

محلات التحف التذكارية منتشرة في المدينة، ويمكن أن تجد فيها كل ما يخطر على بالك، و على بال الحرفي التونسي، من أواني ومنتوجات ومجسمات خشبية نحاسية وجلدية، تباع بأسعار تخضع لأخذ وردّ بين البائع والسائح.

لكن إذا كان السائح الأوروبي يجد متعة في النقاش والحديث حول أسعار التحف، وذلك ما تنصحه به الكتب السياحية التي يحملها في رحلته لمزيد من المتعة والألفة، فإن الجزائري والعائلات الجزائرية كما رأيت في بعض المحلات لا تحب هذا اللّف والدوران، وتريد سعرا واضحا ومحددا من البداية، فالدنيا حسابات، وعملتنا ضعيفة وكل شيء بمقدار. فقد سألت عن سعر محفظة جلدية في أحد المحلات، وراح البائع يعدد مزاياها وجودتها ثم قال :سعرها للأجانب 45 دينار لكن بما أنكم جزائريون وأشقاء فثلاثون دينارا تكفي.. هل تزور تونس لأول مرّة ؟يله اعطيني

..25ولما تقول له أنك ستفكر أو ستكمل جولتك وربما ستعود مجددا، يقول لك :لا تترك المحفظة هنا، وخذها براس المال بعشرين دينار..وحين تعتذر بلطف يقول لك :إذن أنت لست هنا لتشتري، وإلا لما كنت رفضت عرضا كهذا، كان عليك أن تقول لي هذا من البداية.

شخصيا، لا أحب مثل هذه الطرق في البيع لأنها تفقدك الثقة في أي سعر مبدئي يعطيه لك البائع، وستشعر أنه يحاول خداعك واستغفالك، مهما كان السعر الذي عرضه عليك مقبولا وموضوعيا.

ميزة الجزائري أن أشد ما يحز في نفسه ويحطم كبريائه ويثير سخطه على الدنيا وعلى ذاته هو استغفاله، فهو لا يحسب المال، ولا يملك الحس الاقتصادي الذي يملكه الآخرون، ويمكن أن يضع مبلغا كبيرا عن طيب خاطر في شيء عادي، شرط أن يحس بأنه أبرم صفقة جيدة، لكنه إن اشتمّ رائحة استغفال في الأمر حتى وإن كلفته مليما أو اثنين فإن المليم في ميزان كبريائه يصبح مليونا، ويتحول إلى قضية كرامة.

بعض المحلات فهمت هذا الأمر جيدا، وراحت تعلق أسعارا محددة لمنتوجاتها في انتظار ظروف سياحية أحسن .صحيح أن عدم تحديد سعر التحفة التذكارية اليدوية في معظمها تعود لرغبة البائع، وقد يكون صانعها في نفس الوقت طامعا في أن يعطي للسائح الحرية في تقدير إبداعه، وتقييم الجهد الذي بذله الحرفي في صناعتها، وقد يكون الحس الفني والذوق الجمالي للسائح عاليا فيكرم الحرفي بدولارات أو يوروهات مضاعفة .لكننا كمغاربة ننتمي إلى نفس نمط الروح المتوسطية، وبالتالي«:ما تكسّرليش راسي ..قل لي شحال حقّك، وهاك دراهمك.»

الجميل في تونس أن هناك محلات تبيع مختلف عصائر الفواكه، وهو ما لاحظته بشكل أكبر من قبل في مصر وفي المملكة المغربية أيضا .من المؤسف أن في الجزائر تأخرا ونقصا في ذلك، رغم أننا بلد فيه من الفواكه الكثير.

مما لاحظته أيضا، ذلك التنوع الكبير في السندويتشات المقدمة وعلى رأسها الملاوي و الشاباتي،

وهو عبارة عن خبز مطبوخ في عين المكان، يوضع فيه شيء من الجبن والبيض والتن والسلطة والهريسة.

قد لا يبدو الأمر أولوية وطنية وتنموية، لكن من المهم جدا أن يكون للبلد أكلة شعبية سريعة، تكون جزءا من واجهته السياحية، وما غزو الشاورما لمطاعمنا إلا برهان عجز في مجال الأكل والطبخ، قبل أن يكون دليل تفتح على أكلات وثقافات مطبخية أخرى .فبعد أن فقدنا الهوية في العمران والملبس ورحنا نستورد من خارج البلد كل شيء تقريبا، بما في ذلك شيئا من الممارسات الدينية، ها نحن نفشل رغم امتلاكنا رسميا لأكثر من مائتي نوع من الكسكس، وأكثر من ثلاثمائة طريقة لطبخ الكسكس، في أن نجعل العالم ينظر للكسكس على أنه جزائري. كما أنني لازلت في رحلة البحث عن المصنع الذي صنع للبعض النظارات التي أصبحوا يرون بها سيارة السامبول على أنها جزائرية.

السواح الروس بالمقابل لا يقتنون الكثير من التحف أيضا، لأن أغلب هؤلاء السياح من الطبقة ذات الدخل

المتوسط، ويدفعون مالا لوكالة سياحية في بلدهم بصيغة «all inclusiv» حيث تضمن لهم الوكالة إقامة كاملة بفطور وغذاء وعشاء وتجوال، وتفتكّ أحسن الأسعار عند التفاوض، لذلك فمازال الرهان على السائح الجزائري أكبر وأهم.

حين دخلت في المساء إلى الفندق، كانت مجموعة السياح الذين تركتهم في الصباح للمغادرة نحو وهران لازالوا مرميين في بهو الاستقبال، بعد أن أُخرجوا على عجل من غرفهم في الصباح .سألت أحدهم وقد كان رب عائلة فقال لي :أخشى أننا سنقضي الليلة هنا.. عُطلتنا تتحول إلى فيلم درامي، سألته عن سبب كل هذا التأخر لكنه كان متعبا ومنهارا، وفهمت أنه يفضل أن لا يتكلم معي كي لا يذوق مرارة المعاناة مرتين .يكفي أنه هنا يترقب أي خبر أو إشاعة أو إشارة عن موعد انطلاقهم ومغادرتهم للفندق، بعد أن انتهت العطلة في ذهنه، وصار هنا مجرد جسد مرمي دون حماس ،بجانب حقائب محزومة لم تتحرك من مكانها، وهو مضطر فوق ذلك لتحمل أسئلة اطفاله في كل مرة عما

يجري، و عتاب زوجته الناقمة الذي لم يتوقف.

حين رحنا لتناول العشاء، لم يخرج الحديث في الطابور بيننا عن هذه المجموعة العالقة في الفندق، والذين تدخل المشرفون على وكالتنا من الشباب ،ولا أدري كيف تم الاتفاق على ذلك مع الفندق، كي يمكّنوهم من تناول العشاء معنا، رغم أن الفندق غير مسؤول عن تأخرهم في المغادرة .وكانت تلك لفتة وصورة تضامنية جميلة بين الجزائريين الذين حملوا معهم بعض الخبز في الحقائب، فلا أحد يعرف كم سيستمر الوضع، وإلى أين سينتهي الأمر.

إحدى الأمهات قالت لنا وهي تنتظر دورها في الطابورلأخذ قطعة لحم مطاطية وقطعة سمك لم نعرف اسمه ولا نوعه فضلا عن طعمه :لقد جئت إلى هنا رفقة ولدي، وهذا السفر هو جائزة فوزه بشهادة التعليم المتوسط، وقد وعدته بأن يكون سفرنا هذا عطلة لا تنسى ..وهو الآن يقول لي ساخرا منذ الصباح: معك حق يا أمي .. إنها عطلة حقا لا تنسى .

نزلت في السهرة بعد ثلاث ساعات إلى بهو

الاستقبال، المكان الوحيد في الفندق الذي تجد فيه الويفي، وإمكانية الإبحار في النت والاطلاع على بعض الأخبار عبر الفيسبوك أو الاتصال بالعائلة عبر الفايبر .تفاجأت بوجود نفس المجموعة من وهران، وكأنهم منكوبون، وقد كدّسوا أمتعتهم وجلسوا في انتظار طويل مملّ.

اقتربت من الجالسين وكانوا رجالا ونساءً وأطفالا ،وسألتهم عن الجديد في قضيتهم، وهنا انطلقت إحدى النساء في الحديث بنبرة غاضبة مرتفعة :

سأفضح هذه الوكالة أينما حلّت وارتحلت، لقد أخذوا منا خمسة ملايين، ووعدونا بأسبوع ولا في الأحلام، وها نحن نعيش هذا الكابوس .تصور أن المائة يورو التي بدّلناها في البنك صرفتها فقط في سيارات الأجرة، للتنقل بعد أن رفض صاحب الوكالة أن يخرجنا في الحافلة للتجول، رغم أن البرنامج كان يتضمن هذه الخرجات ..لم أستطع النوم طيلة أسبوع كامل بسبب جيراني من الشباب، الذين كانوا يسهرون كل ليلة إلى وقت متأخر ..لو ألتقي صاحب

الوكالة مجددا سأخنقه بيدي هاتين

فسألتها :وأين صاحب الوكالة هل هو هنا؟

أطلقت ضحكة مُرة قائلة :لقد تركنا في الحدود في عهدة ابنه، وبقي في الجزائر، كان علينا أن نتنبه لذلك ونطالبه بمرافقتنا .أنتم محظوظون لأنكم اخترتم وكالة« ج »فهم على الأقل أكثر تنظيما، ولديهم برنامج واضح، والفضل يعود إليهم في تناولنا للعشاء منذ قليل، حتى أنهم قالوا لنا« لا تخرجوا من الغرف» ،لكننا صدقنا صاحب الوكالة وها نحن عالقون هنا.. أنظر إلى حالتنا، سأفضحه في النهار والشروق وفي كل الجرائد والقنوات.

بعدها تكلم معي رجل ستيني، جاء رفقة عائلته ،وقال لي :اسمع يا بني، أنا مهاجر في فرنسا منذ ثلاثين عاما، وأعمل في التجارة .جئت مع هذه الوكالة لأن صاحبها« ولد حومة، »وقد وعدنا بعطلة جيدة، لكنه أخل بالتزاماته، ونحن الآن أمام ابنه الأبله المسؤول عن حافلة بكاملها، وعن عودتنا من حيث أتينا .ليس هناك طرف جدّي وبالغ كي نحاوره، أنا ما نهدرش

مع البزّ، وأعرف أنني سأصفع الولد لو تكلمت معه. أحاول أن أحتفظ بهدوئي قدر المستطاع، لكن حين نصل إلى وهران، سيكون حديثا آخر.

رجل ثالث تدخل في المحادثة قائلا :

أنا في العادة، التحواس والتنزه ماشي عند العرب، وماشي مع العرب، أنا أقضي عطلي كلها في إسبانيا وفرنسا حين أكون بمفردي، والأمور تسير كما في الأفلام ذات البدايات والنهايات السعيدة) لا أعرف إن كان هذا النوع من الأفلام موجودا (لا أدري كيف غرّني إبليس هذه المرة و قررت اصطحاب العائلة في عطلة .طبعا مشاكل الفيزا وغلاء اليورو هي السبب الأول، فلا أحد يستطيع اصطحاب كل أفراد عائلته معه إلا إلى تونس) ما نكذبوش على رواحنا (وها نحن في هذا المستنقع منذ الصباح، وقد سبق وأن حذّرت المرأة والذراري و كأني توقعت حدوث مصائب من هذا النوع، و قد شاهدوا كل شيء بأعينهم.

بينما كان هذا الحديث يجري بيننا في بهو الفندق، كان أحد الأطفال الصغار يأتي مسرعا كل خمس

دقائق، يحمل لنا أخبارا عن صاحب الوكالة الشاب الذي حاصروه في الخارج، و كادوا يتعاركون معه ،ثم عاد من جديد وقال لنا إنه يقول لكم« :ما عندنا ما نديروا لازم نباتوا وغدوة نروحو »..وهنا قامت والدته بإمساكه، طالبة منه أن يبقى هادئا في كرسيه ،وإلا فإنه لن يجد مكانا يبيت فيه .وهي تدعو بالويل والثبور على مول دعوتها.

تذكرت بدوري أنني في آخر مرة زرت تونس سنة 2009كنا رفقة وكالة سياحية، وكان ابن صاحب الوكالة مسؤولا أيضا عن سير البرنامج، وتنظيم أمورنا وجولاتنا في سوسة .هنا عرفت معنى الحكمة القائلة« :قمة الذكاء هو أن تكون غبيا في بعض المواقف »فقد كانت كل احتجاجات السياح يقابلها هذا الشاب ببلاهة، وعدم فهم لما يجري، وما إن تسأله أو تطلب منه شيئا حتى يغرب عن وجهك لساعتين، ثم يعود ليسألك :ماذا طلبت مني منذ قليل؟ ثم يجيبك أحيانا بلغة غير مفهومة وكأنه ابتلع قرصا مهلوسا..

أوجه الشبه بين هؤلاء الأطفال أيضا، الذين يبدو

أنهم يدخلون ضمن مخطط واضح واختيارهم من طرف الوكالات لا يكون اعتباطيا، هو أنهم متعبون طيلة الوقت، أجفانهم منتفخة، والسواد بادٍ تحت أعينهم، يتنهدون قبل كل إجابة، لدرجة أنك ترقّ لحالهم أو تفقد الأمل في إمكانية أن يفيدوك بأي معلومة أو موقف، فتترك سؤالهم وتذهب للاعتماد على نفسك في قضاء أمورك.

ليس ذلك جديدا، في القديم كانت الدولة حين تريد أن تحارب عالما ما، تسلط عليه في الشارع فئتين من الناس :الأطفال والمجانين .وهما فئتان لا تستطيع بلاغة وذكاء ومنطق أي عالم أن تقف أمامهما، يبدو أن سياسة وكالاتنا السياحية هي سياسة دولة اسيدي.

جانب من الفندق

مسبح الفندق والواجهة البحرية

الفرق بين لي يطل على البحر ولي يعوم فيه

في اليوم الموالي استيقظت باكرا لتناول إفطار الصباح .

وفطور الصباح في الفندق، عبارة عن جبن طازج غير مملح موضوع في صحن كبير، ومعجون في صحن، وكاشير وجبن بلا طعم ولا رائحة، وخبز وهلالية أو خبز بالشوكولاطة، وبيض مغلي، وحليب وقهوة وخبز محمص. وطبعا الفاكهة الرئيسية، والتي يبدو أنني سأتذكر الحمامات كثيرا حين أتذوقها في أمكنة أخرى :البطيخ الأحمر.

اعتدت على النهوض الباكر في العطلة أو في غيرها، وبالتالي فإني أجلس في بهو الاستقبال أستأنس بالتدفق الجيد للنت في الفترة الصباحية، في انتظار أن يفتح المطعم أبوابه في تمام الساعة السابعة .السياح

الروس يستيقظون مبكرا جدا، وبعض الجزائريين أيضا، خاصة من العائلات .بينما يغط الشباب في نوم عميق، بعد أن يكونوا قد سهروا إلى الصباح، ولم يناموا إلا منذ ساعتين من الآن.

تبعد مدينة سوسة عن الحمامات بثمانين كيلومترًا إلى الجنوب، وسوسة واحدة من كبريات المدن التونسية على الساحل، وفيها فنادق فخمة وشواطئ جميلة ومدينة قديمة عريقة، زرتها قبل سبع سنوات.

وفي برنامجنا اليوم صباحا زيارة للمدينة، وركوب لسفينة القراصنة، كي نخرج بها في جولة خفيفة

والثمن هو 15 دينارا وهو ثمن مدروس للمجموعة، ففي تونس أثمان تذاكر الأشخاص والمجموعات الكبيرة تختلف، كلما كبرت المجموعة قلّ الثمن.

انطلقنا إلى سوسة على الساعة العاشرة صباحا في باصاتنا التي تعودنا عليها، كان البعض منها أنيقا ومكيفا، والبعض الآخر أقل راحة، وطبعا الباص الوحيد الذي تتوفر فيه كل شروط الراحة هو الذي تم تصويره في الملصقة الإعلانية للوكالة ، داخل الباص

قمنا بدفع ثمن تذكرة السفينة التي سنركبها للخروج إلى عرض البحر.

في سوسة توقفنا في الميناء وهبط الجميع من الباصات، طلبوا منا التجول قليلا في المدينة، والعودة بعد ساعة ونصف للركوب لأن السفينة غير موجودة، وقد قامت بإخراج مجموعة من السياح للتو.

الجميل في ميناء سوسة أنك تشاهد البواخر التجارية الكبيرة أمامك، و تستطيع أن تتمشى على رصيف الميناء، تأخذ صورا تذكارية، وتحس فعليا أن المدينة تطل على ميناء بحري.

حكى لي قبطان سفينة متقاعد ذات يوم، وهي مهنة رائعة قليلا ما يحلم بها الأطفال عندنا (مع أنها من ضمن المهن التي يمكن أن يلتحق بها أي حامل لشهادة البكالوريا بعد دراسته لتخصص علمي في الجامعة لمدة عامين و وينجح في مسابقة دخول للمدرسة العليا البحرية ببوسماعيل، شرط أن يكون عمره يومها أقل من 25 سنة) حكى لي أنه رسى بسفينته ذات يوم في مرفأ نانت، وهذه المدينة الفرنسية تقع

عند مصب نهر اللوار في المحيط الأطلسي، لكنها تبعد عن المصب بخمسين كلم، أي أن السفن تدخل عبر النهر إلى عمق القارة كي ترسو في مرفأ المدينة .كان القبطان من فوق ظهر سفينته يتأمل مقاهي ومنازل المدينة، حين لمح رجلا فرنسيا يقوم بتصوير السفينة فنزل القبطان ليستفسر عن ذلك.

أخبره الفرنسي أنه يقوم بتصوير كل السفن، لأن رئيس البلدية يريد منعها من الدخول مجددا إلى هذا المرفأ، حيث ينتظر أن ترسو السفن مستقبلا في الميناء الكبير الذي يطل على المحيط في مصب النهر .القبطان تفهّم قرار رئيس البلدية وقال للرجل :أعتقد أن القرار صائب، فالسفن التجارية منظرها بشع وصدئ ،ومن الأفضل أن ترسو خارج المدينة.

لكن الرجل كان له رأي آخر، فقد قال للقبطان: سأضطر أن اصطحب ولدي خمسين كيلومترا خارج المدينة كي يستطيع إشباع فضوله في مشاهدة الأشكال والألوان والأنواع المختلفة للسفن الكبيرة .الأطفال يسألون كثيرا ووجود الميناء وسط المدينة درس

تطبيقي مهم لما يعرفونه عن عالم البحر والإبحار.لا تنسى أن «جول فيرن» من مواليد مدينة نانت، وقد استلهم الكثير من كتاباته من هذا المرفأ بالذات.

هذا الشعور البسيط، وهذه المزايا لن تجدها عندنا في البلد، فكل موانئنا مغلقة في وجه المواطنين، لايمكن تصوير الميناء، ولا تسنح لك فرصة مشاهدة السفينة عن قرب، فنحن نشاهد السفن في عرض البحر فقط.

في كل مدن العالم يعتبر الميناء متنفسا للمدينة، لكن عندنا في الجزائر فإن الميناء يخنق المدينة، يحاصرها ويخنقها ..يحرمها من رؤية الشروق والغروب وراء أفق البحر، ويمنعها من سماع الأمواج، و فرحة طائر النورس المحلق فوق سفن الصيد حين ترجع بشباك ممتلئة.

تجولنا في مدينة سوسة بعض الوقت، وعلى رصيف الميناء جلس صياد يبيع أبواقا كبيرة، ومحارا، وقطعا من الإسفنج الطبيعي الموجود بكثرة في المياه التونسية. رحنا نتحدث قليلا عن الصيد والبحر، جميع الدول العربية تطل على البحر دون استثناء عدا جنوب

السودان حاليا .إنها نعمة كبيرة لا تملكها 48 دولة أخرى من العالم لا تطل على البحر، تسمى بالدول الحبيسة، وهذه الدول تعاني من ارتفاع تكاليف النقل والاستيراد والتصدير .

من بين هذه الدول دولتان متطورتان جدا هما سويسرا والنمسا. سويسرا مثلا تستأجر ميناء جنوة الإيطالي، لتصريف منتوجاتها واستيراد احتياجاتها من الخارج.

يبدو أن في بلدنا كنوز طبيعية وسياحية وبشرية هائلة، لكن إذا كان الأذكياء يستغلون كنوزهم ويقومون بتنميتها واستثمارها فإن القراصنة عادة يقومون بدفنها!

أتحدث عن القراصنة هنا، لأننا بعد قليل سنركب هذا المركب الخشبي من نوع سفينة القراصنة، انطلاقا من ميناء سوسة، وننطلق في رحلة ترفيهية جميلة يقوم بها هذا النوع من المراكب عبر المدن التونسية الساحلية منذ سنوات، ويركبه الجزائريون منذ سنوات أيضا، مع فارق أن الأعلام التي ترفرف

فوقه اليوم هي أعلام جزائرية.

سفن القراصنة هي سفن خشبية ترسو في موانئ مدن تونس الساحلية السياحية، وتقوم بخرجات لفائدة السياح يمكن على متنها تناول غذاء (سلطة خيار، قطعة سكالوب، وسردين مشوي وكأس صودا باردة).

على متن السفينة يتم تشغيل أغاني راقصة ويدخل الجزائريون في موجة رقص وجدب عنيفة لإفراغ ما تراكم من زعاف ومكبوتات طيلة سنة كاملة.

هذا النشاط البحري السياحي بدأ منذ التسعينيات، ويلقى رواجا كبيرا وإقبالا من طرف السياح .لكن هل يمكن تصوّر وجود سفينة هكذا في ميناء جزائري يركبها مواطنون ويخرجون لرؤية مدينتهم من البحر لأول مرة؟!

أتذكر أنني سمعت كثيرا عن جمال العاصمة حين تراها من البحر، لكن هذه الفرصة لم تتح لي إلا حين غادرتها على متن باخرة طارق بن زياد ذات عام.

أحد أصدقائي أخبرني ذات يوم عن حادثة طريفة وقعت معه، فقد ملّ من الذهاب إلى تونس في كل مرة يريد أن يركب مظلة هوائية مشدودة بخيط إلى زورق سريع، والقيام بجولة بحرية و هوائية .فقرر وهو صاحب محل لتصليح الزوارق والدراجات المائية السريعة، أن يقوم بإدخال هذا النشاط إلى الجزائر، وبالضبط إلى ميناء الجميلة غرب العاصمة. لم يبحث صديقي عن أي رخصة أو تسريح و «دار النية في الهبال» كما يقال، وحصل على المظلة الهوائية والزورق السريع، وجاء يوم الانطلاق. وفعلا ارتفع بمظلته الهوائية التي جلبها وشاهد الجزائر من علِ، قبل مجيء يان بيرتراند (مخرج الفيلم الوثائقي الجزائر من عل) أو فريق طالاسا ليخبرونا أن سماءنا جميلة.

المسكين لما نزل على الأرض، وجد كل الألوان الأمنية الخضراء والزرقاء والصفراء في انتظاره على اليابسة. أخبرهم بعفوية مصطنعة أن البحر لله والسماء لله، ونحن نسبح بحمده هنا وهناك.

بعد تدخلات ومكالمات هاتفية يمنة ويسرة تم إخلاء سبيله، مع وعد بعدم تكرار هذا الفعل الشنيع، ومغادرة قدميه للأرض التي يمشي عليها دون إذن أو تسريح.

سفن القراصنة في تونس تصنع محليا، في دار صناعة السفن بالمهدية، وهي تدرّ أموالا طائلة على أصحابها، وتكلف السفينة الواحدة لو صنعناها بأموالنا أكثر بقليل من مليار سنتيم، وهو استثمار ناجح ومضمون، خاصة وأن الكثير من السياح الجزائريين يتمنون أن يعيشوا إلى اليوم الذي يمكنهم فيه ممارسة حقهم في اكتشاف سواحل مدنهم وبلداتهم من البحر.

السفن الراسية جميعها تزنيت بالأعلام الجزائرية والتونسية والروسية، في محاولة لجذب أكبر عدد من سياح هاتين الدولتين .

إذا كان السياح الجزائريون في الموعد بمليون سائح كالعادة يدخلون تونس سنويا، فإن عدد الروس تجاوز عتبة الثلاثمائة ألف سائح، وهم متواجدون

في كل مكان في تونس، حتى أن اللافتات في المطاعم والفنادق والأماكن العامة صارت تكتب باللغة الروسية.

هذا الاجتياح الروسي لتونس جاء بعد حادثة تفجير الطائرة الروسية في مصر، والتي توفي على إثرها أكثر من مائتي سائح، وتم حضر الرحلات الروسية نحو مصر .رغم أن عدد السياح الروس إلى مصر تجاوز عدد المليونين ونصف سائح سنة 2009 قبل أن يعاود التراجع، ثم الاستقرار عند مليونين، وهو أكبر عدد لسياح من دولة أجنبية يزور مصر عبر التاريخ.

إسقاط الطائرة الروسية الحربية من طرف الأتراك أيضا جعل الروس يحجمون عن الوجهة التركية، وهنا يبرز الذكاء السياحي التونسي، الذي استطاع الترويج للساحل المتوسطي التونسي، لدرجة جعلت تونس ضمن أول خمس وجهات سياحية للمواطنين الروس حاليا.

الأوروبيون تراجعت أعدادهم أيضا، خاصة بعد هجوم متحف الباردو الذي خلف مقتل أكثر من

عشرين سائحا، و مذبحة شاطئ البوجعفر في سوسة التي خلفت أكثر من ثلاثين قتيلا من السياح .

لكن رغم منع بعض الدول الأوروبية لرعاياها من السفر إلى تونس، إلا أن الأرقام تؤكد دخول 250 ألف سائح فرنسي، 65ألف سائح ألماني،56 ألف سائح إيطالي، وحتى 13 ألف سائح بريطاني. الليبيون تراجعت أعدادهم بشكل ملحوظ أيضا لكنها لم تنزل عن عتبة نصف المليون سائح، والمغاربة رغم غلق الحدود لكن 25 ألف مغربي تم تسجيل قدومه إلى تونس .

قضينا سويعة ممتعة في عرض بحر مدينة سوسة، على متن سفينة القراصنة، وعدنا بعدها إلى الميناء حيث بقي أمامنا ساعة ونصف للتجول في المدينة قبل العودة الى الحمامات.

سفينة القراصنة سالمة 2

مقارنات ومقاربات لابد منها

ذهبت لزيارة المدينة القديمة، أو بلاد العربي كما تسمى هنا . فوجئت بأن الكثير من مظاهر الاتساخ قد غزت محيط المدينة، وأصبحت الكتابات على الحائط بارزة بشكل أكبر، وكلها مشاهد لم أرها في آخر زيارة لي في .2009 فهل حررت الثورة شعب تونس من الظلم والاستبداد، وحررته أيضا من الانصياع لبعض الضوابط القانونية، وكسرت فيه الخوف من النظام وسيدي الحاكم؟

سألت أحد سائقي سيارات الأجرة في الحمامات عن حال البلد بعد حادثة البوعزيزي.فقال لي« :الخدمة ناقصة، حمامات يسمين كانت« سان تروبي »متاع تونس، وما فمّاش العرب ..اليوم راك تشوف التوانسة

صبحوا ينزلوا في الفنادق.»

الظاهر أن السياحة التونسية لا تراهن كثيرا على مواطنيها في رفع المداخيل، وتفضل طبعا السواح الأجانب، وذلك أمر مفهوم بعض الشيء، فإذا كان السواح الجزائريون كما رأيتهم يهتفون في شوارع يسمين حمامات: تونس ديالنا.. وندیرو راينا، فما بالك بصاحب البلد.

نهاية المساء عدنا للحمامات، وفي الطريق يمكنك مشاهدة مساحات واسعة من الشواطئ التي بقيت على حالتها الطبيعية. احترام وفرض القانون مهم جدا لإنجاح أي سياسة سياحية، ولا يمكن تصور بناء المساكن والفيلات على شاطئ البحر كما نرى في الجزائر، حيث تنتشر الفيلات حتى فوق «الصخور المطلة على البحر.»

صحيح أن المستعمرين هم أول من بنى تلك القرى الصغيرة على الشواطئ المعزولة، ولكنها كانت منازل صيفية، وفيها حدّ أدنى من الأواني والأثاث لاستعماله صيفا فقط .واليوم تحولت تلك القرى إلى مدن يتزاحم

فيها الآلاف من المصطافين لدرجة أن قارورة الماء أصبحت تباع بمائة دينار، وصار الازدحام المروري شديدا، ونسينا البحر وزرقته في تفاصيل ذلك كله.

ما لاحظته في تونس أيضا، هو وجود مساحات وقطع أرضية قريبة من الشاطئ، لكنها غير مبنية ،وفيها أشجار زيتون، ويبدو أنها موجهة حصرا للعقار السياحي، وهذا ينم عن وجود صرامة في هذا الميدان، خاصة وأن قضية العقار من أصعب وأكثر القضايا استراتيجية وأهمية، ولو أولت بلادنا لهذه القضية الاهتمام الذي تستحق، لكنا في غنى عن الكثير من الاشكالات الاجتماعية والاقتصادية الحالية.

برنامج وكالتنا السياحية كان متنوعا ما بين أيام حرّة، لنا مطلق الحرية في تمضيتها كما نشاء، وأيام فيها برنامج ونحن أحرار أيضا في الانضمام إليه من عدمه.

وكأي سائح يحب الاطلاع المسبق على ما هو موجود في المدينة التي سيزورها، كنت قد دخلت موقعا على الويب قبل مجيئي لتونس، كي أتعرف فيه على أهم

معالم الحمامات التي يمكن زيارتها، والموقع طبعا أجنبي ونقرت على رابط :ماذا يمكن أن تفعل في الحمامات؟

في الرابط معلومات عن أهم المعالم وأسعار الدخول، وآراء السياح في فصلي الشتاء والصيف، وكان أن وجدت موقعا أثريا رومانيا ليس بعيدا عن الفندق الذي أنزل فيه، لكني أعرف أن أكبر المواقع الرومانية خارج روما موجودة في الجزائر، ثم بالنظر إلى مساحتنا الشاسعة فإن أكبر الهياكل الأثرية موجودة بالضرورة في بلدنا، بغض النظر عن معرفتنا بها ،أو بالطريقة المثلى للترويج لها. ولا أتحدث هنا عن تراثنا المادي فقط، يقال إن ابن خلدون كتب جزءا من مقدمته في مغارة بنواحي تيارت ..بل حتى صاحب رواية دون كيشوت الإسباني ميغيل سيرفانتس مر عبر الجزائر حيث مكث بها خمس سنوات سجينا .

من الذكاء أن يستغل الأشقاء تاريخهم في خلق قيمة مضافة لأجيال الحاضر، ومن المثير أن تعرف كيف تقتات من أسطورة غزو حنبعل لروما على

ظهر الفيلة، فتنشئ لها مدينة ألعاب كاملة، ثم تلبس الجمل طربوشا أحمر عليه علم تونس، ليصبح أيقونة للبلد، ويباع في محلات التحف التذكارية .

الجِمال عندنا لا تراها في التلفزة إلا قرب آبار البترول ،للتدليل على وجود هذه الآبار في ديكور صحراوي طبيعي، ولا تسمع بالإبل في جرائدنا إلا وقد اقترنت أخبارها بحوادث مرورية مميتة ..في السنوات الأخيرة تتواجد بعض الجِمال في شواطئنا قرب خيم صحراوية بالية، تعود كل عام وتفتقر لشروط النظافة، وهذا رأي شخصي قد أكون فيه محقا أو مخطئاً..

قصر سيباتيان، واحد من القصور في مدينة الحمامات، بني في عشرينيات القرن العشرين من طرف ثري روماني، استقر بالناحية آنذاك وأقام حديقة كبيرة، وفيلا بهندسة معمارية بسيطة وأنيقة، تعكس النمط المعماري السائد في المنطقة .بعدها أصبح هذا المركب إن صح القول لأنه يحوي متحفا صغيرا ومسرحا للهواء الطلق، ملتقى لكبار الفنانين العالميين، وصارت الحديقة رواقا لمختلف التحف

الفنية التي ينحتها أو يبدعها الفنانون المعاصرون.

في الحديقة أيضا متحف صغير، تجد فيه بعض الأواني والأدوات القديمة التي كانت تستعمل في الزراعة المحلية بالحمامات، حيث البساتين وزراعة الزيتون والعنب، قبل أن تمحي الفنادق والإقامات السياحية كل ذلك من الوجود.

زرنا الحديقة والمنزل وتجولنا في أنحائه، إنه بحجم واحد من خمسة من مساحة حديقة التجارب عندنا في العاصمة، و رسم الدخول بخمسة دنانير كاملة. أي أن الدخول إلى حديقة الحامة يبدو مجانيا مقارنة بهذه القيمة.

القاعدة تقول إنك لا تخسر أبدا عند أول تجربة، أي أنك مهما دفعت من مال لتجربة شيء جديد، أو لتناول طعام لم تتذوقه من قبل في مكان لم تزره من قبل مثلا،فلا تحسب نقودك وجرّب، بعدها يمكن أن تحكم انطلاقا من تجربتك الأولى إن كان يصح القيام بالثانية أو لا. وهي قاعدة جيدة ومجربة.

الحرارة كانت شديدة حين كنا نتجول في المنزل والحديقة قبل مغادرتها .المكان كان نظيفا جدا، ويطل على بحر هادئ. أتصور أن السياح الأجانب حين يأتون إلى هنا سيتناقشون حول النمط المعماري، وأسماء النباتات والأزهار الموجودة، وذلك بسبب ثقافتهم الواسعة التي تعمل مؤسساتهم التربوية على غرسها فيهم منذ الصغر .فكل العصافير بالنسبة لنا «زواوش »وكل الأشجار بالنسبة لنا أشجار، وكل السمك بالنسبة لنا حوت، مع أن هناك الآلاف من الأنواع التي لن ننساها لو تم تعليمها لنا في الصغر. عقولنا في العادة اختزالية، الناس قاع كيف كيف، كلش نورمال وكل أخضر حشيش.

سياحة الحشود كما تسمى لا يهمها كثيرا وجود هذه المعالم، حتى لو علمت أن ثعلب الصحراء رومل أقام لبعض الوقت بين جدران هذا المنزل أيام الحرب العالمية الثانية.

زرنا مدينة الحمامات القديمة مرة ثانية مساء، ووجدت معرضا لبيع الكتب فدخلت أقلب الكتب

التونسية، واكتشفت فيها صحفيا مثيرا للاهتمام اسمه الصافي سعيد، غزير الكتابة والإنتاج . وأعجبني عنوان اسمه «حمى42» يتحدث عن شخصيات تاريخية بشكل جديد ومغاير. أعتقد أنه كان الجائزة الكبيرة لليوم. فالمرء يحب أن يستيقظ صباحا ثم ينام في الليل وقد تعلم شيئا جديدا، أو عرف معلومة جديدة، أو تعرّف إلى كاتب جديد.

إلى حد الآن العطلة تسير بشكل جيد، تستيقظ صباحا، تتناول إفطارك بشكل مبكّر، ثم تتوجه للارتماء في كرسي طويل، وتكتب وتسجل شيئا من الملاحظات والتأملات التي تكون خصبة في هذا الوقت من النهار .وبعدها أنت حر في فعل ما تشاء.

في الغرفة تلفزيون ملون ذو بطن كبيرة، و قد أصبح آلة قديمة عندنا في الجزائر بعد أن أصبحت الشاشات المسطحة في كل مكان بما في ذلك السجون، رفقة بث لكامل مباريات البيين سبورتس .وهذا التلفزيون فيه قناة واحدة تبث بشكل جيد هي القناة الثانية الفرنسية، ومن المعروف أن هذه القناة تبث على التردد

الأرضي التونسي منذ أكتوبر 1989 ولم ينته عقدها مع تونس إلا سنة 1999 وهي قناة حين تشاهدها لوحدها في التلفزيون دون بقية أخواتها، تفهم جيدا لماذا تتشابه القنوات الرسمية للدول عموما.

في اليوم الموالي كنت جالسا في بهو الفندق حين رأيت مدير الفندق بسيجاره الفاخر، وتبّانه المميز، وتسريحة شعره الأبيض الأملس .إنه يشبه الممثل الفرنسي جول بول بيلموندو في مشيته وكلامه. صحيح أنني في عطلة لكن ذلك لا يخرجني تماما من ثوب الصحفي الذي يرغب في معرفة ما يدور حوله، وكيف ولماذا؟

قصدته وألقيت عليه التحية، فردّ عليا طالبا مني الجلوس، رحت أدردش معه وسألته عن سبب بعض الفوضى بالفندق، بالخصوص في المطعم، فأجابني قائلا:

-نحن عرب ونعرف بعضنا جيدا، عندما تتعامل مع سياح من جنسيتك وجنسيتي، يصبح الأمر صعبا .ذات يوم نزل في الفندق عميد واحدة من أكبر

الكليات في تونس مع عائلته، وفي العشاء انقضّ على كل الأطباق الموجودة وأخذ منها كميات كبيرة، من الواضح أنه حسبها بعينيه لا بمعدته، ثم جلس على الطاولة وبدأ يقضم شيئا من هنا وجزءا من هناك ولقمة من هنالك قبل أن يترك لنا الطاولة مفروشة ببقايا وأنصاف الصحون ، ويخرج مع عائلته من المطعم. هل يستطيع مدير فندق أن يجادل عميد كلية في طريقة تناول الأكل .تربيتي لا تسمح لي حتى بتوسيخ الغطاء الموجود فوق الطاولة عند الأكل، وحين أنهض من الطاولة أتركها نظيفة .أظنك شاهدت التبذير الذي يقوم به النزلاء في المطعم..إنه شيء لا يطاق.

ثم أكمل قائلا وهو يتحدث عن السياحة في تونس :

-أملك فندقين، الأول يشتغل طيلة السنة، خاصة مع الأجانب، وأبذل جهدا معتبرا لملئه في كل المواسم، والثاني الذي نتواجد فيه الآن يشتغل صيفا فقط.. لا بديل لنا عن السياحة فهي موردنا الأول.البلد يملك حظيرة فندقية هائلة، ومعتبرة، ويجب ملؤها واستغلالها .أمضينا سنوات طويلة في بناء الفنادق

والإقامات السياحية، ولا يجب أن يبقى كل هذا الأرث السياحي فارغا أو غير مستغل .لقد كنا الروّاد في الصناعة السياحية، وكان الأتراك يدرسون عندنا، أنا شخصيا قمت بتكوين العديد منهم في أروبا، واليوم انظر إلى السياحة التركية أين وصلت، وأين بقينا. علما أن في تركيا رؤوس أموال كبيرة ليست نظيفة تماما، بحكم موقعها الجغرافي، وأنواع التجارات الممنوعة الموجودة في تلك البقعة من العالم .لكن يجب الاعتراف أن الشعب التركي خدام وما يعرفش الكسل

مررنا بالكثير في تونس، لكن ستعود المياه إلى مجاريها، وستعود السياحة إلى سابق عهدها .وتذكر أن أحسن الصفقات المربحة هي التي تعقد في وقت الأزمات.

C’est dans les temps des crises qu’on fait les bons affaires

كانت تلك آخر جملة قالها لي سي مصطفى مدير الفندق .في وقت الأزمة عندنا قبل سنوات بيعت أراضي وعقارات في ضواحي العاصمة بمبالغ تبدو اليوم

رمزية .وأصبحت أصغر وحدة حسابية تقاس بها أسعار العقارات اليوم لا تقل عن المليون دينار.

لاحظت في الفطور الصباحي والعشاء ليلا في المطعم أن مجموعة السياح الروس يدخلون قبل الجزائريين نصف ساعة، ولم أستطع أن أمنع نفسي مرة أخرى من أن أسأل أحد عمال المطعم الذي بدا من مظهره أنه خبير، و قديم في مهنته، عن السبب في ذلك فأجابني قائلا :إنها تعليمات المدير، وعلينا تنفيذها .ثم مال علي وأضاف :لو كان الأمر بيدي لما قبلت بذلك، بالنسبة لي كل النزلاء في مكانة واحدة، ولا يصحّ أن يدخل فوج قبل آخر .صحيح أن صاحب الوكالة الروسي احتج لدى صاحب الفندق بسبب عدم احترام اخوتنا واشقائنا الدزيرية للطابور، وعدم قدرة الروس على مجاراتهم في ذلك، وتوصل الطرفان إلى حلّ وسط يقضي بدخول الروس إلى المطعم قبل الدزيرية، لكن بوقت قليل، وبما يكفي لكي يغترفوا من كل نوع من الأكل صحنا، أو بضع ملاعق ثم يدخل الجزائريون.

فقلت له: ولو كان الأمر بيدك ماذا كنت ستفعل؟

لو كان الأمر بيدي سيدخل الجميع في وقت واحد، لكني سأعمل على توزيع عربات الأكل عبر زوايا المطعم الأربع، إذ لا يعقل أن يحصر كل هذا العدد في زاوية واحدة من أجل الحصول على الطعام، حتى الألمان واليابانيون كانوا سيجدون صعوبة في ذلك .الدزيرية خاوتنا، ناس رجالة ومتاع مواقف، والتعامل معهم من أسهل ما يكون، كان بالحكمة والرزانة والأمور تمشي ..أطيب شعب هوما الدزيرية، نحكيلك عن تجربة، أنا خدمت معاهم برشة في فرنسا.

سألت هذا السيد المحترم عن الأكل ونوعيته، ورغم أنه كان يتحدث بصوت خافت وتلك نبرة صوته الطبيعية، إلا أنني فهمت منه أن أرباح المؤسسات الفندقية حاليا ليست في تقديم المزيد من الخدمات السياحية بمقابل مالي، لأن نوعية السياح الوافدين ليست تلك التي تصرف دون حساب، فكل شيء عند السياح الآن بمقدار، خاصة مع الفرق في العملة، لذلك يعمد الفندق إلى تحصيل الأرباح عن طريق تخفيض التكاليف، وذلك من خلال توظيف موسمي لشباب

جامعي، أو من خلال إكرامنا بالبطيخ الأحمر فطورا وعشاء، وأسرّ لي أن مدير الفندق خبير في مثل هذه الحسابات، وأنه يقوم بترك موظف واحد فقط يقوم بتسيير الشؤون الإدارية الروتينية للفندق بعد نهاية الصيف، في انتظار الصيف المقبل، وأنه يجني من الفندق في أشهر الصيف أكثر مما يجينه طيلة أيام السنة المتبقية.

مدير الفندق بالمناسبة، كثيرا ما كان يأتي لتفقد الأوضاع في بهو الاستقبال، وكان يتحدث مع العمال بفظاظة مبالغ فيها لاحظها الجميع، لدرجة أن الجزائريين كانوا ينزعجون من طريقة معاملته للعمال، مع أن لا ناقة ولا جمل لهم في الأمر.فمعروف عن الجزائري انفعاله ورفضه لأي شكل من الحقرة التي يراها بهذا المنظار، ويفهمها من هذه الزاوية فقط،حتى ولو كانت عند الآخرين شيئا عاديا أو معاملة ترضي الطرفين.

الجزائري هو الوحيد مثلا الذي لا يفهم كيف تدفع مالا لطفل يمسح لك حذاءك،فقد ارتبطت هذه الصورة

في وعيه و ذاكرته الجماعية بصورة المستعمر .وقد تم إلغاء هذه الحرفة تماما من شوارع العاصمة بعد سبعة أشهر من استقلال الجزائر، وذلك بعد عرض مسرحي مؤثر للفنان الراحل الحاج عمر، بقاعة ابن خلدون، غنى فيه أغنية عنوانها«ورود بيضاء لأمي» يحكي فيها عن قصة طفل صغير يمسح الأحذية لشراء دواء لوالدته المريضة .العرض كان بحضور الرئيس بن بلة آنذاك، والذي قرر في عين المكان إلغاء هذه المهنة في الحين، وجمع كل الأطفال من الشارع ووضعهم في مراكز خاصة لتعليمهم حرفا أنبل وأفضل .

إذا كان الآخرون يدفعون مالا للطفل من أجل أن يمسح الحذاء، فإن الجزائري سيدفع له مقابل أن لا يمسح له الحذاء، بل ولعدم ممارسة هذه المهنة أصلا .

لكن البعض يتساءل اليوم أيهما أشرف :مسح الأحذية في الشوارع، أو سرقة الأحذية من المساجد؟ علما أن رئيس البرازيل السابق لولا داسيلفا كان قد مارس هذه المهنة في طفولته، كما مارسها أيضا مارك

تايزون، ومن المغرب صاحب رواية الخبز الحافي الكاتب محمد شكري .وقد أصبحوا بعدها مرتاحين ماديا، وربما ساهمت تلك التجربة في صقل شيء من شخصيتهم وإثراء تجربتهم.

في فندقنا الذي أصبح مستوطنة جزائرية، حيث الأغاني رايوية والسيارات المركونة في الموقف وبمحاذاة الفندق كلها ذات ترقيم جزائري، كانت الأجواء جيدة .هناك مجال لتكوين صداقات وفتح أي موضوع مع أي نزيل معك، ويكفي أن تسأله ذلك السؤال الوجيه الذي يبادرك به أي جزائري لدى أول تعارف بينكم: أنت منين؟ وبعدها تجد الإثنان أو المجموعة ككل قد أصبحوا أصدقاءً، وذهبوا لمكان ما من المدينة أو المسبح أو الشاطئ لتمضية الوقت معا.

بالنسبة لشاطئ البحر، يمكنك أن تهبط للسباحة في أي وقت تشاء، ليلا أو نهارا، والتمدد في الكراسي العريضة لمراقبة الأمواج، أو تأمل انعكاس ضوء القمر على سطح البحر ليلا. كما يمكنك السباحة طيلة النهار في مسبح الفندق.

في المتحف

الآخر هو المرآة

في اليوم الموالي قمنا بزيارة نابل، وهي مدينة قريبة من الحمامات، وفيها سوق تقليدية جميلة، تجد فيها محلات تبيع الكثير من التحف، ورأيت الكثير من مرافقينا وقد حملوا معهم أشكالا وألوانا من التحف، ما بين ملابس وأقفاص للعصافير والقفة النابلية المعروفة اليدوية الصنع.

الكثير من التحف التي اقتنوها موجودة في الجزائر، لكن الترويج لها غائب، وذلك ينسحب على السياحة أيضا، فنحن محامون فاشلون لقضية سياحية رابحة.

قبل أن أذهب إلى تونس، كانت الثلاثون دينارا التونسية شغل الجزائريين الشاغل عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ووجدت الصحف في ذلك فرصة مواتية لملء افتتاحياتها صيفا، خاصة مع ركود

الساحة السياسية.

لم أكن أستطيع إكمال قراءة التعليقات على المنشورات في الفيسبوك حول الضريبة، ليس لكثرتها وتنوعها، بل لخروجها عن الموضوع الأصلي في كل مرة .فأحيانا تجد المنشور يتحدث عن موضوع ما، وكل التعاليق التي تحته تتحدث عن موضوع آخر تماما.

ثم إن العنف اللفظي في التعاليق هو السمة الغالبة لمعظمها، حيث تجد أحدهم يسب العروبة والمغرب العربي و الشعوب والحكام، ويأتي آخر لوصف الأشقاء بأقذع الأوصاف، لا يضاهيها إلا ثالث ينزل في الشعب الجزائري سبابا وشتما، مستثنيا المرضى الذين يذهبون للعلاج.. ويدعو الله أن لا يرفع عن الشعب الذل والقهر الذي وضع نفسه فيه بذهابه للعطلة في الشقيقة تونس.

العنف ضد الذات وضد الآخرين عندنا ممارسة شائعة في الحياة اليومية، فقد كنت ذات يوم في سوق شعبية لشراء بعض الخضر، وكان أحد البائعين

يعرض تمرا بنوعية رديئة تغطيها في الواجهة حبات تمر كبيرة وجميلة، يتضح من تصفيفها بتلك الطريقة أنها مجرد طعم لاصطياد أنظار المواطنين.وزاد من بشاعة المنظر وجود بعض الذباب الذي يحوم في المكان. أحد الزبائن طلب كمية من التمر، وامتدت يد البائع مباشرة إلى التمر الرديئة التي يتجول في أجوائها الذباب، وهنا انتفض الزبون وقال للبائع لا أريد من هذه التمر إنها غير نظيفة .انزعج البائع كمن مسّ في كبريائه، أو اتهم في عرضه، ورفض البيع من أساسه.

وهنا جاء زبون ثان، ولا أدري كيف أراد استغلال الموقف وقال للبائع: أعطيني من هذيك التمر، ما تديرش عليهم هاذو لاتشي تشي ياكلو غير البانان والكيوي، ما يعرفوش التمر. البائع ارتفعت معنوياته، وانتفخ صدره، واسترجع ثقته، وقال: طبعا لو تطل على دارهم تلقاها موسخة، ويعيشوا مع الفيران، اومبعد يقولك الذبانة في التمر.. وجوه الذبان. وهنا يقول الزبون: الحمد لله حنا زاوالية ناكلوا كلّش وما نتشرّطوش.. ربّي يصبّرك معاهم.

والبعض منّا يفهم أنه حين تكون زواليا، فمعنى ذلك أن تقبل بأكل أي شيء، وتتحمّل أي ظرف حتى لو كان غير صحي أو قانوني. فحتى الفقير من حقه أن يأكل طعاما نظيفا.

ذات يوم قمت بروبورتاج في سوق السمك، حول الأسعار المرتفعة لهذا المنتج وسألت أحد البائعين عن السبب، فضحك بخبث وقال: الشعب يحب الغلاء ويخاف من الحاجة الرخيسة. أما حين سألته عن سبب عدم وضع السعر فوق المنتج فقال وراء الكاميرا أنه يبيع بالوجوه، وأنه لا يبيع لصاحب المرسيديس كما يبيع لمول الماروتي.

ما يعانيه المواطن في الإدارات، المستشفيات، وسائل النقل الجماعي، وحتى في حياته المهنية كلها نتائج لهذه الكمية من العنف وعدم الرضى.. الأفارقة في الشارع أكثر سعادة منا في وجوههم، رغم ظروفهم التي نعرفها. خلاصة القول: شعبنا حقّار ومحقور وما يحبش الحقرة..

بالعودة إلى الضريبة ودعوة بعض التعليقات إلى

مقاطعة تونس بسبب الغلاء، واستغلال الموقف من طرف الأشقاء، فإني أذكر أنه في بداية الصيف كانت هناك دعوة مماثلة لمقاطعة سواحل إحدى المدن الجزائرية، بسبب الغلاء أيضا وقلة الخدمات وما إلى ذلك من الحجج، وفي النهاية أثبتت الإحصائيات أن هذه الولاية استقبلت أكبر عدد من المصطافين هذا الصيف. ونستنتج من هذا أن المعلقين على الفايس، إما أنهم يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون ما لا يقولون.

النشاط السياحي صناعة وليس ارتجالا، أو عرسا يتم تسييره بالنوايا الحسنة و«المعاونة تاع الجيران.» في هذا الصدد تعرفت منذ مدة قصيرة بأحد مديري الفنادق، وسألته :هل يدفع السواح الأجانب باليورو في فنادقنا، وهل في هذه الفنادق صندوق للدفع بالدينار وآخرا لاستقبال اليورو؟ فقال لي: إنطلاقا من خبرتي الميدانية، فإن السواح الأجانب على قلتهم من أصل أوروبي، أو من أصول جزائرية، يدفعون بالدينار لأن الفارق بين قيمة التحويل الرسمية والموازية كبير جدا، لذلك فهم يربحون من تحويل عملتهم

بعيدا عن البنوك الرسمية، ويعرفون ذلك من خلال مرافقهم الجزائري، سواء أكان سائقا أو مرشدا أو صديقا. لكن حتى في حالات نادرة أين يتقدم السائح لموظف الاستقبال ويدفع بالاورو أو الدولار، فإن عامل الاستقبال يقوم بحساب سعر الغرفة بقيمة التحويل الرسمية، وبعدها يضع العملة الصعبة في جيبه ويعوضها بدينارنا الجزائري من جيبه. العملية قانونية ولا تعتبر سرقة، لأنه عوض عملة بعملة حسب السعر الرسمي المعتمد من الدولة. وأنا كمدير لا أستطيع محاسبته لأن ثمن الغرفة قد دخل إلى حساب الفندق لكنه سيحتفظ باليورو لنفسه. وتلك عملية مغرية حتى لأكثر الموظفين جدية واستقامة، فمن منّا لا يرغب في ربح المال بطريقة سريعة وقانونية في نفس الوقت. لذلك لا يزال اليوم الذي تستطيع فيه الجزائر حساب مداخيلها السياحية بالعملة الصعبة بعيدا بعض الشيء.

لا شيء يخفى تحت الشمس

مضى من عطلتي في تونس أكثر مما تبقى منها، وكان في برنامجنا زيارة لحديقة الألعاب المائية بالحمامات «آكوا فليبر»، وهي عبارة عن مجموعة مسابح و منزلقات مائية، كتلك التي أصبحنا نراها في بعض مدننا.

ذهبنا على متن حافلتين إلى« أكوا فليبر »، وكان رسم الدخول 25 دينارا كاملة، مع منع تام لإدخال أي نوع من المأكولات والمشروبات، فكل ذلك موجود بالداخل (لكن لا تسأل عن الأسعار.)

لم يكن عددنا كبيرا، وأغلب الزائرين يزورون هذه الحديقة لأول مرّة .

وصلنا إلى الحديقة بعد نصف ساعة من الطريق، ودفعنا ثمن التذكرة في الحافلة، ثم تجمعنا أمام

مدخل الحديقة وبدأنا في الدخول ،يبدو أن المكان صغير جدا، وفيه منزلقات مائية عادية بعض الشيء، إثنان منها معطلة.

لكن المفاجأة كانت في الكراسي والمظلات، فما إن تجلس في الكراسي العريضة المنتشرة في أرجاء الحديقة، حتى تأتيك شابة عاملة تطلب منك خمس دنانير للكرسي، وعشرة دنانير للمظلة .وهنا ثارت ثائرة المجموعة على أساس أن 25 دت من المفترض أن تغطي تكلفة الكرسي، فلا يصح أن يدخل المصطاف ويبقى واقفا. لكن، وبعد مشاورات ولوم متبادل بين أصحاب الوكالة السياحية ومسير الحديقة والمجموعة، تم الخروج بقرار على وزن ترقاق الخبزة والماكلة مرتين، حيث اتفق كل خمسة منا على كراء كرسي واحد، لوضع أغراضنا، والتداول على حراستها.

بعدها اكتشفت أنه يجب عليك الوقوف في طابور كبير، كي تصعد للمنزلق المائي، أما بالنسبة للمنزلق المائي المغطى، فيجب أن تقف في طابور عند المصب كي تحصل على عجلة مطاطية، ثم تحملها لتقف في

طابور آخر، كي تصعد إلى المنزلق المائي، وتهبط بها. سيستغرق منك الأمر نصف ساعة من أجل الهبوط في أربعين ثانية.

المنزلقات المائية العالية كانت ثلاثة، وبألوان مختلفة، خضراء وحمراء وزرقاء. ونحن واقفون في السلالم، ونتقدم إلى الأعلى في أحد الطوابير، دار جدال بين الواقفين، حول أي المنزلقات أصعب. أحد المراهقين الجزائريين يقول لنا إن الأزرق هو الأصعب، جزائري آخر يقول له الأحمر هو الأصعب، وقد جرّب ذلك العام الماضي .هنا تدخل أحد التوانسة وقال للجزائري: هل أنت جزائري حرّ؟ فردّ الجزائري طبعا حرّ، فقال التونسي ويبدو أنه شاب يعمل داخل الحديقة: لو كنتي دزيري حرّ واش حاجتك بالألوان، انتي لما تطلع لفوق أعطيها بقفزة على صدرك ديراكت.

أكثر ما يعرف به شبابنا في تونس هو الاندفاع والمخاطرة، فعندما كنت في مدينة الألعاب بقرطاج لاند قبل يومين، كان في الحديقة تونسيون وبعض

الأجانب، والبقية من الجزائريين، وهؤلاء من السهل أن تعرفهم مباشرة فهم يحبون ركوب الألعاب بشكل مختلف، وكأنهم ملّوا من تكرار نفس اللعبة ونفس المسار، إذ يجب أن يبحثوا عن التميز والمخاطرة وسط تحذيرات العاملين في الحديقة، والذين يقدمون لهم الملاحظات في كل مرة، لكن دون جدوى.

من جهة أخرى بعض التونسيين يستثمرون جيدا في هذا العنفوان والاندفاع، فالمظلات الهوائية على الشاطئ فيها أعلام جزائرية تنادي خاوتنا للتحدي وإثبات شجاعتهم في الصعود، لذلك تشاهد الكثير من المظلات المصنوعة أساسا من الراية الوطنية.

هذه الراية التي ذكرها الفكاهي المغربي« جاد المالح» في آخر عروضه، وقال«إن الجزائري لا يذهب إلى أي تجمع بشري دون أن يحملها معه »، هي اليوم ترفرف في كل مكان من تونس، ولا داعي أن تحملها معك، ستكون بانتظارك في المطعم، والشاطئ، والفندق، وفي كل مكان يطلب منك مالا مقابل الاستنفاع من خدماته. صحيح أن الجزائري يفتخر برايته في كل

المواقف، لكن السؤال الذي يجب أن يطرحه على نفسه هو: هل تفتخر رايته به في كل المواقف أيضا؟

قضيت بعضا من الوقت في هذه الحديقة المائية، لكني فضلت بعدها الخروج والتوجه إلى شاطئ البحر المجاور للسباحة قليلا، وقد استمتعت بذلك أكثر.

التقيت في البحر مع بعض الطلبة الجزائريين، ورحنا نتحدث عن ظروف الإقامة والإطعام، وأخبرني أحدهم أنهم هم ايضا يتناولون المقارون والدلاّع.. يبدو أننا في مخيم صيف كبير بحجم دولة، دون أن ندري.

اليوم الموالي، كان اليوم ما قبل الأخير في تونس، ذهبنا إلى الشاطئ في الصباح الباكر، والتقيت أحد الجزائريين الذين جاؤوا منذ يومين إلى الفندق، ودخلنا في حديث طويل، أخبرني أنه جاء مع وكالة سياحية من العاصمة، ومرة أخرى يشرف عليهم شاب صغير متهور، ولا يستطيع أن يكون مسؤولا حتى على نفسه، فضلا على أن يتحمل مسؤولية مجموعة سياحية بكاملها. هذا التقني في المجال الصيدلي، قال لي بدوره أنه ذهب رفقة دكتورة جزائرية في

المجموعة لرؤية مدير الفندق، والتحدث معه حول الأكل وظروف الإقامة .الدكتورة أعطته درسا في تاريخ تونس من العهد القرطاجي، إلى زمن بن علي، وصوبت له مجموعة من الانتقادات بمنهجية علمية جعلته يستنجد بمساعده، لكنه لبث صامتا هو الآخر.

لم أشفق كثيرا على مدير الفندق، الذي يبدو أنه يتلقى طلبات مقابلات يومية من طرف النزلاء الجزائريين، لأن السيناريو واضح، سوف يستمع إليهم باهتمام، سيحاول أن يلقي اللوم على النزلاء التونسيين والجزائريين بشكل متساو تحريا للموضوعية، سيطلب منهم رقم الغرفة التي ينزلون فيها، ثم ينادي كبير موظفي الاستقبال، ويوصيه خيرا بنزلاء أرقام الغرف، وبعدها تنتهي عطل هؤلاء في غضون أيام قليلة .ويقوم بعدّ أمواله بعد أسابيع ،وهو منتش بنجاح تكتيكه على المدى القصير، لأنه من الواضح أنها ليست استراتيجية دائمة في تسيير فندق بذلك الحجم ..لا جديد تحت شمس السياحة الجماهيرية في تونس.

بالحديقة المائية أكوا فليبر

مصطافون ينتظرون دورهم للمرور إلى المنزلق المائي

ولذلك ستقضي العطلة مرة أخرى، بعيدة عن سماء بلدك

جميع من جرب العطلة، يقول إن أيامها الأولى تكون بطيئة وساعات اليوم فيها طويلة، ثم بمرور الوقت تعود الأيام إلى سرعتها العادية، هذا الإحساس يتقاسمه الجميع .بل حتى في أيام السنة العادية، حين نكون في روتين العمل تمر أيامنا بسرعة، ويكفي أن نخرج لمدة يوم أو يومين خارج مدينتنا، أو نذهب مع أصدقائنا إلى ولاية أخرى، أو دشرة، أو حتى غابة، لنحسّ أن ذلك اليوم الذي قضيناه أطول من سابقه، بل وتحتفظ ذاكرتنا بما جرى فيه لمدة طويلة.

في حياتنا اليومية نستسلم للوقت والزمن، ونرى أنه يتحكم في كل شيء، وأننا لا نملك أمامه سوى الجري بأقصى سرعة حتى نلحق به ونلحق بأنفسنا.. لكن

ماذا لو كان الواقع غير ذلك؟

نحن نتذكر زمن طفولتنا بشكل أكبر مما نتذكر الزمن الذي نعيشه الآن، فقد كنّا في ذلك الوقت نمرّ بتجارب جديدة ومختلفة، وينتابنا شعور ذهني أن الوقت حينها كان أطول، القيلولة طويلة، الليل طويل، فصل الصيف طويل، الموسم الدراسي لا ينتهي، وحتى كرة كابتن ماجد التي تبقى تسع حلقات معلقة في سماء الملعب كانت تعطينا نفس الإحساس.

الزمن هو ما يشعر به الإنسان، والزمن يشكله الإنسان، فهو لا يمرّ علينا كما يمر على الحيوان والصخر والنبات، بل نستطيع تقصير الوقت في الطابور، واستغلال وقتنا بشكل مثمر كلما كانت الأشياء التي نمارسها جديدة ومتغيرة. إذن كلمّا نشطت ذاكرتك في تخزين أماكن جديدة، وأصدقاء جدد، ومواقف ومشاهد ولغات ولهجات وطبيعة ومناظر جديدة، كلّما تمدد الزمن .وعلى العكس من ذلك، كلما بقي المرء في نفس المكان، يشاهد نفس المناظر، كلما أصبح الوقت قصيرا وسريعا. بل إنه

لا فرق بين من لا يغادر مكانه والأعمى، فكلاهما يشتركان في رؤية نفس المنظر يوميا، نفس الوجوه والأبنية بالنسبة للمبصر، ونفس اللون الأسود بالنسبة للأعمى أو الكفيف، مع ملاحظة أن هناك فرقا في اللغة بين الكفيف والأعمى، فالأول ولد دون حاسة الرؤية، والثانية فقدها بعد إبصار.

الأيام الأخيرة من عطلتي كانت سريعة، بحكم أننا تعودنا على روتين المطعم والفندق والمسبح والشاطئ، لذلك يتضمن برامج بعض الرحلات السياحية في العادة، زيارة لأكثر من مدينة، كإسطنبول تركيا، وكازا، مراكش، أغادير، مع ملاحظة أن اسطنبول لوحدها تتطلب منك 15 يوما لزيارتها بكاملها.

في حمامات يسمين، كنا نتجول ليلا أحيانا، وفي هذا القطب السياحي الجميل الذي يضم مرفأ جميلا لقوارب النزهة، كانت هناك بعض المطاعم والبيتزيريات الراقية.على ذكر البيتزا، وحين يودّ السائح أن يأخذ فكرة عن أسعار البيتزيريا أو المطعم، فإنه يسأل عن ثمن بيتزا «مارغريت»، وهي

تعتبر تقريبا بداية سلم الأسعار، ومن خلالها يمكنك معرفة درجة سخونة أوبرودة الأسعار بالداخل.

لكن هذا الموضوع بالذات في تونس يستوقفني إيجابيا .ففي كل المطاعم و المقاهي، تجد عند المدخل لائحة جميلة مضاءة وبالألوان، وحتى بالصور التوضيحية، تحدد لك جميع أسعار ما يقدمه المطعم. وهذا يجعلك ترتاح في طاولتك، وتعرف مسبقا ما الذي ستتناوله، وكم ستدفع لقاء ذلك، فتمضي سهرتك مرتاحا، ويمكن أن تمارس كرمك بأن تترك بقشيشا إضافيا في الطاولة عند المغادرة .قبل أن أعود بكم إلى الجزائر لأن الوضع هنا نعرفه جميعا، وكلنا نملك قصصا ومغامرات نحكيها، دعوني أقول إن النادل لا يزيد في طمأنتك حين يعطيك لائحة الطعام بقوله :كلشي كاين اتفضّل.

في الجزائر، صديق لي ذهب رفقة عائلته إلى مرسى العربي بن مهيدي آخر شاطئ في الجزائر من الناحية الغربية، والذي يفصل بينه وبين مدينة السعيدية المغربية واد صغير .دخل المطعم، وطلب أكلا لأربعة

أشخاص ودفع مذهولا 8000 دج، وخرج لا يلوي على شيء.

في مناسبة أخرى أحد المغتربين من تلمسان، ذهب رفقة أصدقائه إلى نفس الشاطئ، ولما حان وقت العشاء دعاهم إلى أحد المطاعم، أحد أصدقائي الذي كان ضمن المجموعة روى لي أنه بذل مجهودا كبيرا كي يقنعه بالعدول عن الفكرة، والمغادرة إلى مغنية على الأقل لتناول العشاء، لكن صديقنا المغترب أصرّ على الدعوة .في النهاية، وعند الوقوف بين يدي صاحب المطعم في لحظة الحساب، راح يقترض من الأصدقاء بعض الوريقات الحمراء لإتمام مبلغ المليون وميتين (اثنا عشر ألف دينار جزائري).

صديق ثالث في بوهارون قرب العاصمة، ذهب لتناول السمك رفقة أصدقائه، وظن أنه كلما اقتربنا من البحر كلما انخفضت تكلفة السمكة، فإذا به يترك عند صاحب المطعم مبلغا معتبرا، جعله يقاوم طيلة السهرة كي يرسم الابتسامة على وجهه.

بعد رجوعي من تونس منذ أيام، دخلت مطعما

للسمك في وهران، وطلبت من صاحبه لائحة الأسعار، على اعتبار أنني سأدعو بعض أفراد العائلة، وأريد أن اضبط حساباتي بشكل مسبق،

فالعشاء في المطعم شيء ممتع للخروج عن الروتين، لكني لست مقاولا، أو صاحب عقارات، أو من الذين لا يعرفون كم يملكون من المال بالضبط. صاحب المطعم قال لي: ليست لدينا أسعار، نحن نخضع لقانون السوق أحيانا السمك لا يدخل إلى الميناء، فتكون الأسعار باهضة و أحيانا يكون السمك وفيرا، فتكون الأسعار أقل.

خلاصة القول، إنك هنا لن تعرف أسعار المطعم إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن يجلسك صاحب المطعم، ويسرع النادل في ضبط الكراسي والطاولة، ويضع فوقها الكؤوس والملاعق بسرعة فائقة قبل أن تبدل رأيك.

ولا أعرف لماذا تغيب عنا ثقافة إظهار السعر على المنتج حتى في الأسواق الشعبية .حضرت منذ أيام شجارا في سوق شعبي بين مراهقين يبيعان الخوخ

،والسبب هو أن الأول طلب من الثاني أن يرفع صوته ويعلن عن السعر :الخوخ 200 دج .أما الثاني فأجابه بأن الخطأ ليس خطؤه إن كان الزبون أطرشا ولا يسمع .رغم أن الحل بسيط :قطعة كرطون صغيرة يكتب فيها السعر، وانتهى الأمر.

و حتى السمك في البحر يباع بالهمس عند وصول الصناديق وإنزالها من مراكب الصيد، وهي عادة قديمة، لا يريد العاملون في عالم الصيد التخلي عنها ،رغم أن الحل موجود في البيع بالمزاد التنازلي، حيث يوضع سعر مرتفع للكمية السمكية، ويبدأ في النزول، والأول الذي يطلب الكمية يحصل عليها .وهذا النوع من المزاد موجود في تونس، وموجود أيضا في أسواق الزهور بهولندا، وهو مناسب للمواد سريعة التلف.

للعدل و الانصاف، لابد أن نشير أيضا إلى سلوكاتنا في المطاعم والتبذير الذي نرتكبه، خاصة حين يكون البيفي مفتوحا في الفندق مثلا ،ويطلبون منك أن تختار ما تشاء من الأكل .وحتى لا نكتفي بعرض المشاكل ووضع العدسة المكبرة فوق التصرفات

السلبية فقط، فإني أقترح كحل، ما يعرضه أحد المطاعم في فرنسا، والذي تدفع فيه مبلغ 12 يورو مقابل أن تقف أمام خمس طاولات، مفروشة بكل أنواع السلطات والأطباق والحلويات والفواكه وتأكل منها ما تشاء لكن بشرط

أن تترك صحونك فارغة بعد أن تكون قد أكلت كل ما فيها.أما إن وجدوا في صحنك بقية من أكل، فسيتم تقييمه وستدفع ثمنه.

في آخر يوم من العطلة ذهبنا لاقتناء بعض التحف التذكارية، وذلك مهم جدا كسلوك سياحي، رغم أنك ستشتري أشياء تستطيع أن تجدها في بلدك .لكن تلك الأشياء البسيطة التي تحملها معك لإهدائها أو للاحتفاظ بها في منزلك، ستذكرك دوما بالمكان الذي زرته، وستكون مناسبة لفتح نقاش في المنزل مع ضيف يزورك حين تنتهي المواضيع، أو حين تريد أن تكسر لحظات الصمت التي تحدث أحيانا في أي جلسة مسائية مع ضيوف يدخلون بيتك لأول مرة.

في أحد المحلّات الكبيرة التي تبيع كل شيء، وجدت

جناحا خاصا بزيت الزيتون، اصطفت فيه أشكال وألوان مختلفة، بأحجام وأذواق متنوعة، و علب مزينة ومزركشة بشكل جميل، يسر الناظرين، وكان في الجناح مجموعة من السياح الروس يقتنون هذه القارورات، بل إن بعض الملصقات في الجناح قد كتبت باللغة الروسية مباشرة، لتسهيل المهمة على السائح.

السوق الروسية واحدة من أكبر الأسواق المستهلكه لزيت الزيتون في العالم، والتونسيون استطاعوا لأول مرة في تاريخهم التربع على عرش أكبر مصدر لزيت الزيتون في العالم في موسم 14/2015 ،بعد أن كانت المرتبة الأولى دائما للإسبان .وهم يجنون مداخيل معتبرة من بيع هذا المنتوج في السوق العالمية (علما أن اسبانيا تبقى الأولى عالميا من حيث كمية الإنتاج).

الأشكال الجميلة تغري أي سائح باقتناء هذه القارورات، بما فيهم السواح الجزائريون، رغم أن بلدنا يحوي ثلاثين مليون شجرة زيتون، لكن انتاجنا غائب عن الخارطة الاقتصادية العالمية أصلا، وبلدنا يستورد من زيت الزيتون إثنتا عشر مرة أكثر مما

يصدر.

عندما يقترب موعد الرجوع إلى البلد يقل استمتاعك بوقتك، وتنتظر لحظة إقلاعك بفارغ الصبر، وتتمنى وجود طريقة تنقلك إلى بيتك في رمشة عين، دون أن تضطر لتحمل مشقة طريق العودة، خاصة حين تكون العودة عن طريق البرّ.

في اليوم الأخير، نهض كل أفراد المجموعة باكرا جدا، وامتلأ البهو في الأسفل بالحقائب، ودائما ما يتعجب المسافر من حجم حقيبة العودة، مع أنه لم يشتر أشياء كثيرة، فقط بعض الملابس والتحف والنعال والأواني...

أحد المحلات التجارية غير البعيدة عن الفندق، حقق أرباحا مذهلة هذا الموسم مع الجزائريين، فكل من يغادر الفندق يكمل آخر دنانيره التونسية في اقتناء أي شيء من هذا المحل، والذي يشتغل دون توقف ليلا ونهارا.

انطلقت حافلاتنا الثمانية على الساعة العاشرة صباحا من الحمامات، وتوقفنا في الطريق مرات

عديدة، حيث ينزل كل الركاب في كل مرة، وتتكرر قصة جمعهم من كل محطة.

وصلنا الحدود في المساء، ومررنا بسهولة عبر الجانبين، الكثير من السيارات كانت تغادر تونس ،ولكن عددا آخر من السياح الجزائريين لازالوا يجتازون الحدود إلى الوجهة التونسية.

وأنت تسير في تراب الجزائر، وتشاهد غروب الشمس، وتشم الهواء النقي، تحس بأنك تسكن في قارة كبيرة، وأن تونس ضيقة جدا .وتبدأ بعض الأسئلة في غزو ما تبقى من تفكيرك في العطلة:

وبلادنا واش خصها؟ وهوما واش عندهم خير منا؟وما نعرفوش نديرو هكذا في بلادنا؟

وهي في العادة أسئلة ستجد لها إجابات صريحة بعد أن تعود إلى روتينك اليومي، وتعيش على وقع ما يحدث في البلد، ومن تلتحم معهم في الإدارات، والشوارع، والمقاهي، والأسواق، لتقرر حين ذلك التخطيط لعطلة مقبلة، بعيدا عن هذه القارة ولو لمرة في السنة.

انتهى

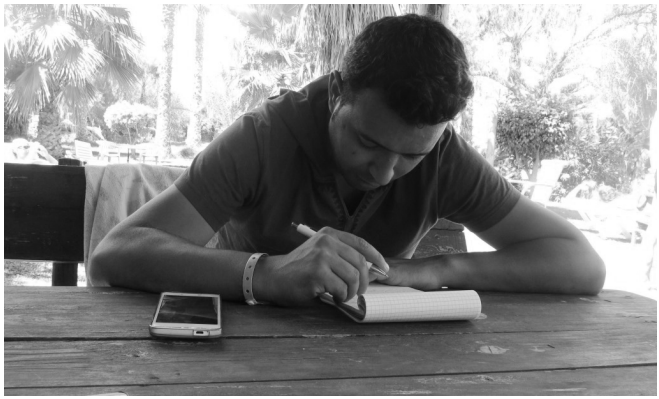

أثناء تفرغي لتدوين الرحلة وكتابة الملاحظات

عطلة تونسية

مجرد الخروج من حدود البلد أو حتى من حدود المدينة التي أسكن فيها أيا كانت المدن هو بالنسبة لي حكاية جديرة بالتدوين وميدان أضع فيه قلمي تحت الاختبار والتمرين ومحفز لي للبحث و الكتابة والتقصّي.

قبل أن أذهب في عطلة إلى جنوب إسبانيا وأحكي عن ذلك في كتاب «جزائري في الأندلس» كنت (جزائريا في الجزائر) أتجول حسب الإمكان عبر ولايات الوطن في سيارة الأجرة والحافلة وبرفقة الأصدقاء والأهل، دون أن تفارقني الكراسة والقلم ومظاهر الفضول الصحفي نحو أي مكان أو مشهد أو موقف أصادفه أو أسمع عنه.

عطلة تونسية هي عطلة تشبه مئات العطل التي أمضاها معظمنا داخل أو خارج الوطن في فترة ما من فصل الصيف وهي ليست بالضرورة الأكثر غرابة وإثارة وتشويقا، بل قد تكون عادية جدا لكنها مكتوبة وموثقة، ولعل هذه هي الميزة الوحيدة التي جعلتها في متناول القارئ الذي سيجد فيها كالعادة رحلة نحو الذات وكالعادة ..من خلال الآخر.

جميع كتبنا متوفرة للشراء عبر
DZREADS.COM
الجزائر تقرأ